حسين قدري

مذكرات سائح مصري في مصر!



دار المعارف

اقرأ

[٥٧٠]

مذكرات
سائح مصري في مصر!

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهداء...

لو أن كل الذى تعلمته من حروف اللغة العربية كان ثلاثة حروف فقط؛ لكفانى ذلك..

ولو أن كل ما أستطيع أن أكتبه من حروف اللغة العربية كان ثلاثة فقط؛ لكفانى ذلك..

ولو أن كل ما أستطيع أن أنطقه من حروف اللغة العربية كان ثلاثة فقط، لكفانى ذلك..

لست أريد من اللغة العربية أكثر من أن أستطيع أن أقرأ اسمها، وأن اكتب اسمها، وأن أنطق اسمها..

اللغة العربية عندى ثلاثة حروف فقط...

حسين قدرى

الفصل الأول

في بيتنا مارجريت!!

كانت السياحة دائما من بين اهتماماتى.. قمت برحلاتعديدة نشرت معظمها فى مجلات عربية وإنجليزية وفرنسية.. وكنت أنا السائح دائـما بطبيعة الحال.. أكتب عما أراه ويثـير انتباهى ويلفت نـظرى فى البلاد الأجنبية التى أزورها.. أكتب كمصرى، لأن الذى أراه بعين مصرية يختلف عن الذى يراه غيرى بعين أخرى.. ولو ذهبنا صديقين مضرى وألمانى - مثلا - كسائحين إلى دولة ثالثة، ولنقل فرنسا مثلا.. فإن الذى يلفت نظرى ويشد انتباهى سوف يختلف قطعًا - وبشدة - عما يلفت نـظر زميلى الألمانى ويشد انتباهه.. ما أراه أنا غريبًا وعجيبًا، قد يراه هو عاديًّا جدًّا لا يتوقف عنده ولا يلفت نظره على الإطلاق، وما قد يراه هو غريبًا وعجيبًا قد أراه أنا شيئًا عاديًا جدًّا.. ولنأخذ مثالاً واحدًا: فلو رأينا فتى وفتاة فى حضن بعض يتبادلان قبلة طويلة فى الشارع، فلن يلفت ذلك نظر صديقى الألمانى لأنه يراه فى وطنه كل يوم وكل دقيقة، أما أنا فسوف

يلفت ذلك نظرى جدًّا لأنه لا يحدث فى بلدى، ليس فقط لأنه غير مسموح به بحكم القانون، لكن أيضًا بحكم التقاليد والتربية، وبحكم نظرتنا الشرقية إلى الحب والعواطف على أنها أمور خاصة جدًّا لا تحدث إلا بين ٤ جدران مغلقة.

وفى الوقت نفسه لو شاهدنا، صديقى الألمانى وأنا، فى أحد شوارع باريس فتاة منقبة أو حتى محجبة، فلن أكلف نفسى عناء النظر إليهانظرة ثانية، لأنه منظر معتاد ومألوف وغير غريب على عينى المصرية أو الشرقية وأراه كثيرًا فى مصر فهو شىء غير جديد علىّ.. بينما سوف يشهر صديقى الألمانى كاميرته ويلتقط لها عدة صور لكى يريها لأصدقائه الألمان عند عودته لوطنه باعتبار أنه قد رأى شيئًا غريبًا لا يراه فى بلده.

وهذه هى الفكرة الأساسية من السياحة: أن نرى أشياء مختلفة عن التى نراها فى وطننا.

وفى الوقت نفسه فقد كان يشغلنى كثيرًا شيئان «سياحيان».. الشىء الأول هو: كيف يرى السياح بلدنا، مصر؟ كيف ترى العين الأجنبية أو الأوروبية مصر؟ ما الذى يعجبهم أو يثيرهم أو يدهشهم - أو يضايقهم - فيها؟ ما الذى يلفت نظرهم فى مصر فيحكونه لأصدقائهم بعد عودتهم إلى بلادهم؟

الشىء الثانى هو كيف نعامل نحن - الشعب المصرى - السياح الأجانب فى بلدنا!؟ هل نعاملهم على أنهم «صيدة» ومحفظة دولارات واسترلينى وماركات ينبغى أن نفرغها إلى آخر بنس إسترلينى أو سنت أمريكى أومارك ألمانى أو «ين» إذا كان السائح يابانى؟ هل نحاول أن

« نستكردهم » ونغشهم و « نخمهم » باعتبار أنهم ما يعرفوش، أو أضعف الإيمان «آهم راجعين بلدهم وحايطولونا فين بعد كده »!! كيف تعاملهم الفنادق والمطاعم والكازينوهات والتاكسيات ومحلات خان الخليلى؟ هل يقول لهم موظفو الاستقبال فى الفنادق إن كل غرف الفندق مشغولة حتى يبتزوا منهم اللى فيه النصيب، فى حين أن الفندق لم ينزل به نزيل واحد منذ ٤ شهور!؟ هل ننشلهم أونسرقهم أونسىء معاملتهم!؟ و (جيبت بكشيش يا چونى) أو(هاتى شلن يا مزمزيل إلهى تنطسى فى نظرك)، هل لازالت موجودة فى المناطق السياحية من الشحاتين إياهم!؟ هل لا زلنا نرغمهم على ركوب الجمل بالعافية فى منطقة الأهرام وأبى الهول ثم نطالبهم بعشرة جنيهات، فإذا دفعوها متضررين قال لهم الجمال الفهلوى: «وفين أجرة الجمل»!؟.. هل لازال الترجمان الشهير يحكى للسياح أى كلام يختلف تمامًا عن التاريخ المصرى الذى درسوه ويقول لهم: إن أخناتون هو أول من نادى بالوحدة العربية قبل «اختراع» العرب بـ ٩٦٥١ سنة و٣ شهور!؟.. والنكتة الأثرية الترجمانية الشهيرة التى تقول إن ترجمانا كان دليلاً لمجموعة من السياح فى منطقة الأهرامات وفجأة عثروا على جمجمة مرمية على الرمال فسألوا الترجمان: «إيه دى يا ترجمان»؟ فقال لهم: «دى جمجمة الملك خوفو بانى الهرم الأكبر».. وبعد قليل صادفوا جمجمة أخرى لطفل صغير هذه المرة مرمية على الرمال أيضًا، فسألوا الترجمان: «ودى إيه كمان يا ترجمان»؟ فقال لهم بثقة: دى جمجمة خوفو وهو صغير».

فكرت فى أن أقوم بدور السائح وأصل إلى مطار القاهرة كسائح

وأسيح فعلاً لعدة أيام أفعل فيها كما يفعل السياح، وأترك نفسى لسائقى التاكسيات والترجمانات وعمال الفنادق وبائعى خان الخليلى وغيرهم، يفعلون بى ما يفعلونه مع السياح!؟ لكن كيف أستطيع أن أقنعهم بأننى سائح وشعرى الأكرت، وملامحى المصرية تماماً يفضحانى!؟ هل أعوج لسانى وأرطن وأعمل خواجة ثم يشتمنى واحد فأنسى أننى خواجة وأفقعه جوز أقلام وأجرجره من قفاه على القسم!؟.. ثم إن وجهى إلى حد ما معروف فى مصر باعتبار أننى صحفى ربع مشهور تنشر الصحف والمجلات صورتى مع مقالاتى التى أكتبها عن رحلاتى.. صحيح أننى أغش القراء وأنشر صورة لى أيام أن كنت تلميذاً فى ثانوى، لكن برضه بيعرفونى.. فماذا أفعل لكى أبدو سائحاً!؟

لاشىء.. ليس هناك أى أمل فى أن أبدو سائحاً.. فما الحل!؟

وتنام الفكرة وتصحو.. وتختفى ثم تعود.. الفكرة جيدة فعلاً لكن تنفيذها هو اللى صعب.

ونامت الفكرة سنوات عديدة، حتى قفزت إلى إمكانية التنفيذ فجأة فى الربيع الماضى: صديقة إنجليزية حميمة، اتصلت بى من لندن تليفونيا لتقول لى: «حسين، أنا خلاص حاتجنن.. الشغل واخدنى ١٦ ساعة فى اليوم، حتى اكتشفت من كام يوم فقط أننى لم أحصل على أجازة واحدة ولم أسافر خارج إنجلترا ولا مرة واحدة منذ ٣ سنوات.. وخلاص قررت أننى لازم آخذ أجازة طويلة فى الصيف القادم.. وأنت دعوتنى كثيراً لزيارة مصر وكنت دائماً أعتذر بظروف عملى وضيق وقتى.. فإذا كانت دعوتك لى لازالت قائمة فهل ستستطيع أن تتحملنى لمدة ٤ أسابيع هذا الصيف!؟».

أجبتها وقد سطعت الفكرة فى ذهنى كشمس وسط النهار. فكيف لم أفكر فى ذلك من قبل: «أتحملك وأتحمل أبوكى كمان.. على أن توافقى على أن أكتب عن رحلتك لمصر فى مجلتى هنا».. فقالت مندهشة: «تكتب عنى!؟ وهل أنا مشهورة عندكم إلى هذا الحد»!؟ قلت: «لا مشهورة ولاحاجة ولا حد سمع عنك ولا يعرفك فى مصر إلا أنا.. لكنك تؤدين تمامًا الغرض الذى أفكر فيه منذ سنوات.. وسوف أشرح لك المسألة كلها حين تصلين إلى القاهرة»..

مارجريت توملين صديقة إنجليزية حميمة ترجع صداقتنا إلى سنوات بعيدة.. عرفتها فى أمريكا حين تجاورنا فى السكن فى الفترة التى عملتها أنا هناك، ثم توطدت صداقتنا أكثر حين عادت إلى إنجلترا وكنت أنا قد سبقتها إليها بنحو سنتين، فأصبحنا نلتقى كل يوم تقريبًا.. فنانة تشكيلية شهيرة ورسامة رائعة وأستاذة فى كلية الفنون الجميلة.. سيدة حسناء، بيضاء، حمراء الشعر خضراء العينين، تتكلم الانجليزية الشيك الراقية جدا التى لا تخطئها الأذن بما يناسب أستاذة فى الجامعة.. شديدة الملاحظة وتتمتع بعين نقادة ساخرة وكأنها ولدت لتكون صحفية طويلة اللسان والقلم، ومع ذلك فهى كتلة مرح وظرف وخفة دم، وبنت نكتة تتذوقها وتلقيها وكأنها بنت بلد من بولاق لندن.

«مارجريت توملين» تؤدى تماما الغرض الذى أريده وتمنيته.. خواجاية تمامًا وسائحة ١٠٠٪.. سأتركها تتصرف وتتعامل كسائحة، وسيكون دورى فقط هو أن أراقب من بعيد وأسجل ما يحدث.. أسجل انطباعاتها هى عن مصر ورؤيتها لها كسائحة وأسجل شكل تعاملات ناس السياحة

معها، حتى لو نشلوها وسرقوها واستكردوها وخدعوها وضحكوا عليها، فسوف أتركها لهم وأتركهم لها تتفاهم معهم بطريقتها، وتكون مهمتى هى التسجيل فقط.

تعالى يا «مارجريت»..

وقد بدأت رحلة «مارجريت» إلى مصر وهى لا زالت فى لندن.. فحين قرأت لى على التليفون البيانات التى كتبتها فى استمارة طلب تأشيرة دخولها لمصر التى ستتقدم بها للقنصلية المصرية فى لندن، وذكرت لى ماذا كتبت أمام خانة (الوظيفة)، مت أنا من الضحك حتى كادت مدة المكالمة أن تنتهى وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك.. فقد كتبت «مارجريت» أمام خانة الوظيفة: (آرتست ARTIST) بمعنى (فنانة تشكيلية)!! فطلبت منها أن تضع كلمة (رسامة)، أو (أستاذة فى كلية الفنون الجميلة) بدلاً من حكاية (آرتست) هذه.. وشرحت لها أننا فى مصر نتعامل مع صفة (آرتست) على أنها راقصة شرقية، ودرجة عاشرة كمان.. ولو كتبت فى جواز سفرها أمام خانة الوظيفة كلمة (آرتست) فسوف يطالبها موظفو الجوازات فى مطار القاهرة بأن ترقص لهم ١٠ بلدى حتى تثبت لهم شخصيتها.. وبما أنها لن تستطيع أن ترقص ولا حتى ٣ بلدى، فمن الأفضل أن تضع كلمة (رسامة) فقط! وحصل..

فى يوم وصول «مارجريت» إلى مصر انتظرتها فى مطار القاهرة من الداخل فى منطقة وصول الركاب إلى صالة المطار.. لكنها ضاعت منى فى زحمة وصول ٤ طائرات دفعة واحدة من أماكن مختلفة من العالم، ولشركات طيران مختلفة، وانشغالى بمراقبة مجموعة كبيرة لا تقل عن ٥٠

أو ٦٠ من الفتيات المنقبات، كلهن يرتدين لونًا واحدًا وكأنه زى رسمى أو (يونيفورم).. حتى أن تعليقًا مرحًا من واحد كان يقف إلى جوارى أطلق عليهن: فريق مصر الدولى للمنقبات.. وعلق واحد آخر مندهشًا: هل سوف يكشفن عن وجوههن أمام ضابط الجوازات أم لا !؟ وهل تقبل إدارة الجوازات إصدار جواز سفر وفيه صورة منقبة !؟

ولحقت بمارجريت وهى واقفة فى الطابور الطويل أمام مكتب الجوازات قبل أن تصل إليها يد أمين الشرطة الذى كان ينظم الطوابير بأن يشخط فى السياح الأجانب باللغة العربية: «خش جوا الصف.. خش جوا الصف» ويزغد السياح الرجال فى كتفهم فيضعهم (جوا الصف)، ويزغد السائحات البنات والستات (بحنية) ومش مهم بعد كده يخشوا جوا الصف أم لا.. ولحقت «مارجريت» قبل أن تطولها يد أمين الشرطة الحنين فتنقلب المسألة بنكد من أول لحظة لها فى مصر لأننى أعرف طبعها النارى العنيف، ومرة كنا معًا فى أحد شوارع نيويورك وقبل أن أتدخل أنا فقعت هى سكرانًا إعترض طريقها، فقعته (بوكسا) جابه الأرض فافترش الرصيف بالعرض. ولعله لا زال راقدًا هناك حتى الآن.

ولأنه كان فى صالة الوصول فى مطار القاهرة ركاب ٤ طائرات فى وقت واحد، فإننا فى هذه الزحمة قد استطعنا الإفلات من رذالة الشيالين الذين يفرضون أنفسهم على المسافرين، حتى المصريين منهم – وقد حدث ذلك معى مرارًا – فالشيال يتركك حتى تنزل شنطتك بنفسك من فوق الـ (سير)، ثم ينقض عليك ليختطفها من يدك بدعوى مساعدتك، ثم يضعها على (الترولل)، الذى كنت قد أحضرته أنت بنفسك، وينطلق بها..

وتضطر مرغمًا أن تجرى وراءه وإلا تاه منك فى الزحمة.. وبعد ١٠ خطوات بالعدد تجد نفسك قد وصلت إلى المنطقة الجمركية فيسلمك الشيال الترولل، ويمد يده مفتوحة إليك يتعجلك البقشيش لأن ضحايا آخرين غيرك لسه فى داخل الصالة ينتظرون عودته لينقض عليهم ويفعل بهم ما فعل بك.. ومهما أعطيته من بقشيش حتى لو كتبت له شيكًا بألف جنيه فسوف يدير لك الأسطوانة الشهيرة: «يابيه ده إحنا من صباحية ربنا ما استفتحناش، وحضرتك أول زبون لى النهارده وكلك نظر و ..» إلى آخر هذه الأسطوانة السمجة التى تسمعها من كل شيال بنفس الطريقة ونفس الكلام.. ثم تسمعها مرة أخرى بعد دقائق من سائق التاكسى الذى سوف يأخذك من المطار إلى حيث تريد.. وغالبًا - لو كنت سائحًا - إلى حيث يريد هو.. فقد تطلب منه أن يذهب بك إلى فندق (النيل هيلتون) - مثلا - فيقول لك إنه قد أوصل اليوم ٨ زبائن إلى (النيل هيلتون) وجميعهم لم يجدوا غرفًا فى الفندق، وعاد فذهب بهم مرة أخرى إلى فندق (النيل حنفى) فى الناصرية أو السيدة زينب الذى به أماكن خالية، لذا فهو - سائق التاكسى - قد اختصر الطريق الآن.. وتجد نفسك وقد وصلت فعلاً على باب (النيل حنفى)، وليس لك خيار وأنت لا تعرف البلد... ثم تكتشف أن (النيل حنفى) هو فندق درجة ١٥ ليس لدى وزارة السياحة ولا حتى وزارة الداخلية أى علم به، لكنك تكون قد «اتدبست» واللى كان كان.. لأن سائق التاكسى النشيط، قد قبض العمولة من (النيل حنفى) عن توريدك إليه ثم اختفى وتركك تواجه مصيرك.

ورغم أنه - كما ذكرت - ٤ طائرات قد وصلت إلى مطار القاهرة فى وقت واحد، ففى الحقيقة أن رجال الجمرك فى المطار كانوا سريعين وشهلين ومرنين، ومرت كل الأمور بسهولة ويسر، ولم يحدث تكدس ولا تزاحم ولا فوضى فى منطقة الجمرك.. حتى أن «مارجريت» أبدت دهشتها للانضباط الذى رأته ولم تكن تتوقعه.

كنا - الأسرة الكريمة وأنا - قد قررنا أن تقيم «مارجريت» خلال فترة زيارتها لمصر فى بيتى، لكى تكون تحت أعيننا طول الوقت ونرى انطباعاتها ٢٤ ساعة فى اليوم من ناحية، وأوفر على نفسى مليون جنيه كنت سأدفعها لو أنزلتها فى فندق يليق بقدرها، وهو لن يقل طبعًا عن فندق ٥ نجوم..، ولم أكن مهيأ - لا نفسيا ولا «جيبيا»، ولا حتى «صحفيا» - لأن أغرم ٦ آلاف جنيه لو أننى استضفتها فى فندق.

وتقرر - الأسرة هى التى قررت - أن تكون «ثناء» و «حياة» هما اللتان تنوبان عن الأسرة فى القيام بمهمة المضيفات أو (وصيفات الشرف) المرافقتين لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. لأن واحدة منهما مدرسة لغة إنجليزية، والثانية تستطيع أن تعد من واحد لعشرة بالإنجليزية دون أن تخطئ إلا فى رقمين أو ثلاثة.

وهكذا، فحين خرجت «مارجريت» من باب مطار القاهرة وجدت نفسها تستقبل كأميرة والطفلتان «حنان» و «هبة» بفساتينهما البيضاء الصغيرة تقدمان إليها باقة ورد فاخرة.. فانحنت لتتلقى باقة الورد من الطفلتين وتقبلهما. وبمجرد أن اعتدلت فى وقفتها وجدت نفسها فى حضن

صديقتى الفنانة الكبيرة «سعاد حسين» التى كانت قد تعرفت عليها فى لندن منذ عدة سنوات، وأصرت «سعاد» على أن تكون فى استقبال «مارجريت» فى مطار القاهرة كما استقبلتها «مارجريت» فى مطار «هيثرو».. واستعرضت مارجريت (طابور المستقبلين) وأنا أقدمهم إليها، والبنات يعانقنها ويقبلنها والشبان يكتفون -متضررين- بمصافحتها باليد: سعاد- هناء- حياة- ثناء- عزة- أحمد فؤاد- سيد محيى الدين- عادل.. وفلاشات التصوير فى كاميرا سيد تلاحقها وتصورها كلما التفتت يمينًا أو يسارًا.. فالتفتت إلىّ وهى ترفع حاجب الكبرياء الأيسر لتقول لى: «وبتقوللى إن ماحدش يعرفنى فى مصر إلا أنت»!!..

وفى السيارة فى الطريق من المطار إلى البيت بدت «مارجريت» وكأنها جالسة على «رولمان بلى».. فقد أصرت «سعاد» على أن تأخذ «مارجريت» فى جولة ليلية فى القاهرة قبل أن تذهب إلى البيت، لكى ترى القاهرة وأضواء القاهرة فى الليل.. فسعاد تعتقد أن القاهرة فى الليل أجمل منها فى النهار، وأنا أرى أن القاهرة هى أجمل مدينة فى العالم ليلاً ونهارًا.. لكن رأى «سعاد» هو الذى انتصر الليلة لأنها هى التى كانت تقود السيارة.. فرأت «مارجريت» الشوارع الواسعة النظيفة الخالية من المارة - قرب الثانية صباحًا - وانبهرت من شكل الطرق العلوية المتعددة، وقالت إنها لا تقل عن مثيلاتها فى أمريكا التى عاشت فيها ٧ سنوات من عمرها.. وصارت رقبتها تدور وراء كل مسجد (تكتشفه) وتتعرف عليه من مئذنته العالية المضاءة، وكل ١٠ خطوات مسجد وبين كل مسجد ومسجد مسجد: «وذلك مسجد آخر.. وذلك مسجد آخر..

وذلك مسجد آخر.. و ..» والتفتت إلىّ لتقول: «يقال إن القاهرة هى مدينة الألف مسجد، لكننى أتصور الآن أنهم أكثر كثيرًا من ذلك.. متى كانت آخر مرة عددتهم فيها»!!

وحين وصلنا فى نهاية الجولة إلى البيت، وأطلت على القاهرة النائمة الصاحية المظلمة المضيئة من شرفة الطابق الثانى عشر فى ميدان رمسيس، ودارت بعينيها ٣٦٠ درجة تتفرج على القاهرة كلها فى هذا الجو من هذا الارتفاع، قالت بصوت خافت حالم: «أتصور أننى - من فرط سعادتى واستثارتى - لن أستطيع أن أنام الليلة».

وقبل أن تنتهى من جملتها كانت قد طبت نائمة، وحملناها حملاً إلى الفراش!!

الفصل الثانى

مارجريت.. فى قسم البوليس!

وأنا فى القاهرة أستيقظ عادة قبل العاشرة صباحًا.. ورغم أننا وصلنا إلى البيت من المطار فى الثالثة بعد منتصف الليل. إلا أننا إستيقظنا قبل السابعة صباحًا على «مارجريت» وهى تهزنا بعنف: «استيقظا يا كسالى.. هل ستنامان طول النهار؟»..

كانت قد اكتشفت مكان المطبخ فى الشقة الواسعة الكبيرة، وأعدت صينية إفطار فاخرة مما وجدته فى المطبخ.. الأوربيون عمومًا يعتبرون الإفطار وجبة أساسية، لأنهم يعيشون عليها طول اليوم حتى المساء حين يعودون إلى بيوتهم من مكاتبهم.. الغداء ممكن ساندوتش سريع أو حتى لا شىء.. لكن الإفطار والعشاء هما الوجبتان الأساسيتان..

وجلست «مارجريت» على حافة الفراش فى مواجهة الشراندة المفتوحة التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، لكى تشهد القاهرة أمامها على امتداد البصر من وسط المدينة حتى الطريق الصحراوى عند

أهرامات الجيزة، مروراً بالقاهرة القديمة: شبرا، وجزيرة بدران والسبتية، وبولاق، ثم مبنى التليفزيون، ونهر النيل وبرج الجزيرة، وعمارات الزمالك العالية، ثم النيل مرة أخرى وامبابة والعجوزة والمهندسين وبولاق الدكرور حتى بداية الصحراء...، وهى مبهورة محتبسة الأنفاس متسعة العينين - الخضراوين الجميلتين - وتصف لنا وهى سعيدة جدًّا كل شىء تراه أمامها ابتداء من ٣ أطفال يلعبون على رصيف نفق شبرا، إلى عربة زبالة يجرها حمار صغير جدًّا إلى واحدة ست ماشية فى الشارع لابسة جلابية سوداء وعلى رأسها قبعة خوص كبيرة لابساها بالمقلوب.. (تقصد مشنة) !!

تقول لى بعد لحظات: «تعرف.. المدن الأخرى التى زرتها فى أنحاء العالم، هى مجرد مدن.. مبانى ومساكن يعيش فيها الناس، وخدمات ومواصلات ومرافق.. لكن القاهرة شىء آخر مختلف، تشعر باختلافه للوهلة الأولى ومن أول نصف ساعة لك فيها.. القاهرة كائن حى.. مدينة لها نبض.. هكذا أحسست بها أمس ليلاً وهكذا أحس بها الآن»..

ونزلنا لكى تبدأ «مارجريت» أول خطواتها على أرض مصر...، وبعد ١٠ خطوات من البيت وجدت نفسى مضطرًا أن آخذها إلى قسم البوليس!! لأ .. هى لم تفعل شيئًا بعد.. سوف تفعل.. لكننى آخذها إلى قسم البوليس كتعليمات مكتب الجوازات فى مطار القاهرة: ينبغى أن يكون مكان السائح معلوماً لأجهزة الأمن فى الدولة. فإذا كان سوف ينزل فى فندق أو فى شقة مفروشة، فسوف يتولى الفندق أو صاحب الشقة المفروشة هذه المسألة ويبلغ جهاز الأمن المختص بأسماء النزلاء عنده

وأرقام جوازات سفرهم.. أما إذا نزل السائح ضيفًا على أحد - كما فى حالة «مارجريت» - فإن على هذا الـ «أحد» أن يسجل لدى قسم الشرطة التابع له أن السائح فلان الفلانى أو السائحة فلانة الفلانية التى بيانات جواز سفرها كذا، سيقيم عنده لمدة كذا.

ورغم أن ضابط مباحث قسم الأزبكية الشاب - ضابط المباحث هو الشاب طبعًا وليس قسم الأزبكية - استقبلنا جيدًا وباحترام وأدب شديد، إلا أنه قال لنا إنه لابد «أيضًا» من تسجيل «مارجريت» فى إدارة الجوازات فى مجمع التحرير !! لماذا هذه الازدواجية وتسجيل السائح مرتين فى مكانين مختلفين !؟ لا أحد يعرف، لكن علينا أن نطيع وننفذ.

وفى طريقنا، سيرًا على الأقدام، إلى مجمع التحرير عبر وسط البلد، مررنا فى شارع عرابى.. وعند مطعم التابعى الشهير أقول لها إنه أشهر مطعم إفطار فى مصر، فلا يلفت نظرها لأنها لم تر إلا واجهة المطعم من الخارج.. لكن بعده بخطوات تتوقف أمام محل طعمجى صغير جدًا يقلى الطعمية فى الشارع على الرصيف أمام الناس.. ووقفت «مارجريت» تتفرج مندهشة على سرعة العامل وهو يكبش بأطراف أصابعه قطعة صغيرة من عجينة الطعمية الخضراء ويلقيها فى إناء القلية أمامه فتطش فى الزيت المغلى وتفور من حولها فقاعات صغيرة وتبدأ الطعمية (تحمر) على الفور.. و «مارجريت» تتابع حركات يديه السريعتين وأقراص الطعمية تتكاثر على سطح الزيت بسرعة.. وتخترق رائحة الطعمية الساخنة الطازجة الشهيرة نغاشيشها الإنجليزية فتتوقف عن السير، وتقول مبهورة وهى تبتلع ريقها : He is making cakes.. ده بيعمل كيك» !!

فشرحت لها وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من الضحك أن الذى يعمله ليس (كيك) وإنما هو طعمية.. وشرحت لها مكونات الطعمية التى لم تكن قد رأتها أو سمعت عنها فى حياتها من قبل، فقالت: «أذوق» فسألتها: «كم ساندوتشا تريدين؟» قالت: «لا أريدها فى ساندوتشات.. أريدها هكذا فقط لكى أعرف طعمها الحقيقى دون أى إضافات أخرى قد تغير طعمها» سألتها: «تاخدى كام واحدة» قالت: «اتنين كفاية». فاشتريت ٤ طعميات - لى ولها - وضعها لى الطعمجى فى قرطاس من ورق الجرائد.. فاندهشت «مارجريت» جدًّا من شكل القرطاس وكونه من ورق الجرائد.. لأنهم فى أوروبا كلها يرمون الصحف فى الزبالة بمجرد أن ينتهوا من قراءتها.. و «مارجريت» الآن عرفت أن للصحف المصرية فوائد أخرى.. كنت أريد أن أستغل سذاجتها وأقول لها إن هذه صحف خاصة تطبع خصيصًا لكى نلف فيها الطعمية.. لكننى خفت لتفتكرنى كداب!

المهم، فتحت لها القرطاس فمدت يدها وبأطراف أصابعها الإنجليزية الرشيقة المطلية بالمانيكير، التقطت طعمياية قطمت منها قطمة صغيرة بحذر لكى تستطعمها، ثم وضعت بقية الطعمياية كلها فى فمها مرة واحدة وشهقت من التلذذ والانبساط.. وبينما فمها الصغير لازال محتشدا بالطعمياية الأولى مدت أصابعها بسرعة فى القرطاس والتقطت الطعمياية الثانية وهى تنظر بكل وجهها داخل القرطاس لترى كم واحدة بقيت.. ووضعت الطعمياية الثانية فى فمها فى قطمة واحدة وهى تسألنى وكأنها ترجونى ألا أفعل: «إنت مش بتاكل ليه!؟» فقلت لها وأنا ميت من

الضحك فى داخلى: «مش جعان أوى» فقالت على الفور وهى تمد يدها لتأخذ القرطاس كله من يدى: «OK».. وفى ربع دقيقة كانت الطعميتان الباقيتان قد تلاشتا.. وكنا قد وصلنا فقط إلى آخر ناصية الرصيف، فتوقفت «مارجريت» ونظرت وراءها لكى ترى كم بعدنا عن محل الطعمجى وهى تسألنى باهتمام: «هل هذا هو الرستوران الوحيد الذى يصنع هذا الكيك فى القاهرة، أم ممكن أن نجدها فى أماكن أخرى، قريبة !؟» !! فقلت لها إنه ليس فى مصر أكثر من «رستورانات» الطعمية لأنها الغذاء الشعبى الأول لكل الناس فى مصر.. فاطمأنت وهدأت.

ومشينا فى شارع سليمان باشا وهى مبهورة بكل شىء وتتفرج على كل شىء وتتوقف أمام كل شىء، وبين لحظة وأخرى تقول لى بسعادة بالغة: «إذن فهذه هى القاهرة، أخيرًا، التى طالما حلمت من وأنا طفلة بأن أراها».. كانت الدنيا حر وفى يونيو والطعمية عملت عمايلها معاها، فقالت لى إنها عطشانة، وتريد أن تشرب شيئًا.. فدعوتها إلى عصير فراولة، فاتهبلت على طعم الفراولة التى تتذوقها لأول مرة عصيرًا.. أكلت الفراولة كثيرًا كفاكهة، لكنها لم تتصورها أبدًا عصيرًا.

وظلت هكذا كل ٥ دقائق تتهبل على شىء وتنبهر لشىء، حتى وصلنا إلى ميدان سليمان باشا، ورأت الصحف والكتب التى تفترش الأرض وتحتل مساحة واسعة جدًّا من رصيف الميدان، ورأت رجلًا بجلابية زرقاء يجلس (على قرافيصه) بجوار الكتب واضعًا يده على خده.. فتوقفت مندهشة جدًّا، وسألتنى: «لماذا كل هذه الكتب مرمية فى الشارع هكذا ؟ هل هذا الرجل يعترض أو يحتج على شىء ما، ويعلن احتجاجه بهذه

الطريقة !؟ هل هو Homeless ليس له سكن ويطالب الحكومة بمسكن لكى يضع فيه كل هذه الكتب !؟ شكله لا يدل أبدًا على أنه قرأ كتابًا واحدًا من هذه الكتب.. أنت صحفى فلماذا لا تسأله ؟». لم أشأ أن أذكر لها أنه أهم ناشر فى مصر الآن حتى لا تظن أن كل واحد قاعد (على قرافيصه) فى الشارع وحاطط إيده على خده، ناشرًا.

ونحن فى ميدان سليمان باشا سألتنى : «إننى لم أر نهر النيل بعد.. هل نحن نسير فى عكس اتجاهه ؟».. فأخذتها إلى مبنى جامعة الدول العربية لنزور صديقى «السيد الطاهرى» مدير الإعلام بالجامعة العربية ورفيق أولى خطواتى فى الصحافة، فقد بدأنا معًا فى يوم واحد فى مجلة واحدة هى مجلة (التحرير) الأخت الصغرى لجريدة الجمهورية.. ولم نبق كثيرًا عند «السيد الطاهرى» فقد كان الغرض من زيارته - فى الحقيقة - هو أن ترى «مارجريت» النيل من نافذة مكتبه. «مارجريت» لأنها فنانة فهى شديدة الحساسية سريعة التأثر والانفعال.. بعد أن تأملت النيل طويلاً وملأت عينيها منه قالت فى صوت خافت : «لقد عشت فى أستراليا ١١ سنة، وفى أمريكا ٧ سنوات وفى إيطاليا سنتين، وفى سويسرا سنة، وفى انجلترا بقية عمرى.. ورأيت أنهارها جميعًا لأننى أحب الأنهار بل مغرمة بها.. لكننى لم أر نهرًا أجمل من نهركم.. لقد رأيته أمس ليلاً فى طريقنا من المطار إلى البيت حين أصرت سعاد على أن ترينى كبارى القاهرة.. وانبهرت له ليلاً، وظننت أن الليل هو الذى يضفى عليه هذا السحر.. لكنه بالنهار لا يقل جمالاً عنه فى الليل.. أريد أن أراه أيضًا عند الغروب».. فقلت أطمئنها : «سوف ترينه فى أى وقت تريدين، فهو فى

هذا المكان ٢٤ ساعة فى اليوم».

كنا نقترب من مبنى مجمع التحرير حين انطلقت «مارجريت» فجأة ترمح كالغزال لكى تأخذ فى حضنها فتاة جميلة محندقة صغيرة الحجم أنيقة، وجاءت بها فى يدها لكى تقدمها لى: «هذه الآنسة الجميلة هى ثناء، قريبتك، هل تذكرها»؟!.. كنا قد تركنا «ثناء» فى البيت عند نزولنا صباحًا لكى تجهز الغداء ثم تلتقى بنا فى ميدان التحرير عند الظهر.. وبما أن «مارجريت» لم تكن تعرف ميدان التحرير بعد، فقد دهشت جدا لرؤية «ثناء» وظنت أننا نلتقى بها صدفة! بعد ذلك بأيام كانت «مارجريت» تعرف الشوارع الرئيسية فى وسط القاهرة بالاسم والموقع.

وفى مجمع التحرير جلسنا فى مكتب الصحافة التابع لهيئة الاستعلامات بينما أخذ الساعى جواز سفر «مارجريت» ليسجله وعاد به مختومًا بعد ٣ دقائق بالضبط.. ولم تستطع «مارجريت» - وحتى «ثناء» - أن تخفيا دهشتهما من هذه السرعة، فقلت لها أغيظها: «الصحافة فى مصر هى السلطة الرابعة كما تعرفين» فقالت فى غضب: «لا أعرف ولا أريد أن أعرف.. لقد وعدتنى بأن أمر بكل الظروف التى تمر بها السائحة العادية التى ليس لها صديق صحفى زى حضرتك، فلماذا تغير كلامك هكذا من أول يوم»!

«ثناء» هى المندوبة فوق العادة التى اختارتها الأسرة لمرافقة «مارجريت» خلال زيارتها لمصر من ناحية لأن «ثناء» مدرسة لغة إنجليزية وتستطيع أن تتفاهم مع «مارجريت»، ومن ناحية أخرى لأن «ثناء» فتاة مرحة كلها ظرف وخفة دم وحبوبة وعشرية وتحب كل

الناس، وكل الناس تحبها بسهولة جدًّا. وثالثا لأن «ثناء» بنت شيك و (لبيسة) ويليق عليها كل شيء حتى لو لبست جزمة كاوتش من غير رباط.. ورابعا لأنها أكثر بنات الأسرة (لماضة) ولا تقف أمامها مشكلة، فهى تحل أى مشكلة تواجهها إما بالابتسامة الجميلة وبالذوق والأدب والرقة وحسن التعامل، وإلا فبالتكشيرة - الجميلة أيضًا - وبالصوت العالى المسرسع الذى يخرق طبلة الأذن فـ «تتساب لها بلاد»، وتتحل المشكلة.

وقد وقعت «مارجريت» فى حب «ثناء» ووقعت «ثناء» فى حب «مارجريت» من أول لحظة، حتى أن «مارجريت» دعت «ثناء» بإصرار وإلحاح أن تذهب إلى لندن وتنزل ضيفة.. عندى أنا!

وتولت «ثناء» القيادة.. فهى أكثر منى معرفة بشوارع القاهرة ومحلات القاهرة وتعرف المستخبى فى دكاكين القاهرة.. والقاهرة - أو مصر - تعتبر الآن كنزًا للسائح الأجنبى بعد ارتفاع أسعار تغيير العملة ارتفاعًا كبيرًا.. فالجنيه الإسترلينى الذى فى جيب «مارجريت» يساوى خمسة جنيهات ونصف من الجنيهات المصرية التى فى جيبى أنا.. لذا اندهشت «مارجريت» جدًّا للأسعار المتواضعة للغاية لكل ما رأته، لأنها كانت تحسب كل شىء فى ذهنها الإلكترونى بحساب الاسترلينى: «هذا الشىء بـ٥٥ جنيه مصرى، إذن هو بعشرة جنيهات إسترلينية.. يا بلاش.. لأن سعره فى لندن لا يقل عن ٦٠ جنيه إسترلينى» لذا فما أن أخذتنا «ثناء» إلى محلات وسط البلد فى شوارع سليمان باشا وقصر النيل وشواربى، حتى إنقطعت صلتها بى تمامًا ولم يعد لوجودى معهما أى لزوم.. حتى أننى

فكرت فى أن أذهب لأقضى عدة أيام على الشاطىء فى الإسكندرية ثم أعود لآخذ «مارجريت» و «ثناء» من شارع شواربى، إذا كانتا قد انتهيتا بعد من شراء ما تريد «مارجريت».. كان معها كشف صغير جدًّا فيه ٥ أسماء فقط - منهم قطتها!! - تريد أن تشترى لهم هدايا من مصر، وحددت لنفسها ميزانية إسترلينية لا تتجاوزها.. لكنها وجدت أنها بنفس الميزانية الإسترلينية تستطيع أن تشترى هدايا لعشرة أشخاص بدلاً من خمسة فقط، فاشترت هدايا لسكرتيرتها ولكلبها وكلبة الجيران، وبرضه فاضت فلوس، فقررت أن تشترى هدية لزوجها أيضًا!!.. وكانت كل الهدايا التى اهتمت «مارجريت» بأن تشتريها لها الطابع المصرى أو الفرعونى المميز.

نظرت «مارجريت» فجأة فى ساعتها ثم سألتنى: «أنتم فى مصر تتناولون وجبة الغداء أيضًا، أليس كذلك»!؟.. واقترحت «ثناء» أن نعود إلى البيت بمترو الأنفاق لكى ترى «مارجريت» الـ (أندرجراوند) المصرى.. «مارجريت» زبونة دائمة للأندرجراوند اللندنى وتقول إنها تقضى فيه وقتًا أكثر مما تقضيه فى أى مكان آخر.. فبين بيتها ومرسمها ساعة ونصف فى الأندرجراوند، وبين بيتها وكلية الفنون الجميلة ساعة بالضبط، وبين بيتها وبيتى ساعة وربع، وبين مكتبها ومكتبى نصف ساعة.. وهى تحصل على أجازة أسبوعية من شغلها لكنها لا تحصل على أية أجازة من الأندرجراوند الذى تتعامل معه كل يوم.. لذا فلم تبد عليها السعادة كثيرًا حين اقترحت «ثناء» أن نركب الأندرجراوند إلى البيت.. لكن «ثناء» طمأنتها بأن عدد محطات الأندرجراوند بين البيت عندنا فى ميدان

رمسيس وبين أبعد مكان فى وسط البلد هى خمس محطات فقط، والمشوار الذى سنركبه من أوله لآخره يستغرق أقل من ٥ دقائق.. فرحبت «مارجريت» على الفور وركبنا فعلاً الأندرجراوند لكى تفاجأ به.. أعجبها جدًّا شكل تصميم المحطات من الداخل، وكل محطة لها طابع خاص مميز بحيث تستطيع أن تعرف المحطة من شكلها وديكورها الداخلى دون أن تحتاج إلى أن تقرأ اسمها.. وقالت «مارجريت» لثناء - لأنها تعرف أننى أعرف ذلك - أن ٩٥٪ من محطات الأندرجراوند فى لندن (قرعاء) وكلها زى بعضها من الداخل وبدون أى ديكور أو تصميم داخلى على الإطلاق. بحيث أنك لا تعرف أين أنت إلا إذا قرأت اسم المحطة المكتوب بداخلها.. وأضافت «مارجريت» بأنه لعل السبب فى ذلك سبب اقتصادى، فمترو الأنفاق فى لندن عدد محطاته ٢٨٤ محطة بينما عندكم فى مصر خمس محطات فقط.. لكن «ثناء» أجابتها بأننا شعب يحب الدندشة ويهتم كثيرًا بالمظهر الجيد والشكل الخارجى.. لذا فعندما يصبح عدد محطات الأندرجراوند عندنا ٢٨٤ محطة مثل لندن، فبرضه سوف تجدين أن لكل محطة شكلها الخاص وديكورها الخاص.. ولما يبقوا ٢٨٤ محطة ابقى تعالى شوفيهم بنفسك علشان تتأكدى!!

يدينا ويديكى طولة العمر يا «ثناء»!

ونزلنا من الأندرجراوند فى محطة (حسنى مبارك) فى ميدان رمسيس التى تواجه بيتى مباشرة على الرصيف الآخر.. لكن قبل أن نعبر الشارع توقفت «مارجريت» فجأة وتلفتت حولها يمينا ويسارًا وهى تشمشم بأنفها الدقيق فى كل اتجاه ككلب بوليسى مدرب، ثم قالت: «الرائحة تجىء من

هذا المكان» وأشارت بيدها إلى باب محل على الرصيف المواجه للعمارة وقالت: «هنا رستوران آخر يعمل الكيك الذى أكلت منه فى الصباح.. ما رأيك فى أن نتغدى من هذا الكيك الآن.. إنه سوف يعجب ثناء جدًا..» و «ثناء» مندهشة لأنها لا تعرف حكاية الـ (كيك) هذه.. لكننى قلت لمارجريت: «إطمئنى من ناحية ثناء فهى قد فطمت على هذا الكيك وتأكله ٧ مرات فى الأسبوع...، ثانيا هو ليس كيك لكن اسمه طعمية.. ثالثا أن هناء وحياة وثناء قد قضين فى المطبخ أمس ٤ ساعات لكى يطبخن لحضرتك الغداء الذى سوف تتناولينه الآن ولا يصح أن تكسرى بخاطرهن وتتركى الأكل المصرى الشهى الذى ينتظرك فى البيت لكى تملئى بطنك طعمية، ثم....» وأشرت لها إلى باب العمارة وإلى باب مطعم الفول والطعمية وكيف أنهما فى مقابل بعضهما تمامًا بحيث أنها حين تهفها نفسها إلى الطعمية سوف تكون فى فمها بعد ٣ دقائق بالضبط.

واطمأنت «مارجريت» وعبرنا الشارع إلى الرصيف الذى عليه بيتى، وقبل أن تدخل من باب العمارة ألقت نظرة أخيرة على مطعم الفول والطعمية وكأنها تقيس المسافة بينه وبين باب العمارة.

الخواجات دول فى مخهم حاجة مش صح.. طعمية!!

وبالفعل كان الغداء فاخرًا.. كانت صديقتى مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى» – وهى طباخة أكثر من رائعة – قد قادت معركة مطبخية بالأمس، وحشرت فى المطبخ معها «ثناء» و «حياة» لتساعدانها فى عمل ٤ أصناف مصرية تمامًا: كشك بالفراخ – بامية – أرز معمر – والحلو (أم على).. وأعدت «ثناء» سفرة رائعة حتى أن «مارجريت» لم تستطع أن

تخفى دهشتها، وقالت: «وتقولون إن ظروف مصر الاقتصادية صعبة!؟ كل هذا الأكل من أجل ٣ أفراد فقط؟ إنه يكفى ٢٠ شخصًا ويفيض.. أنتم مجانين قطعًا.. ولعلنى الآن قد عرفت أسباب أزمة مصر الاقتصادية»!!

الانجليز يأكلون أكلاً بسيطًا وسريعًا طول الأسبوع، ولا يأكلون أكلاً معقولاً ووجبات كاملة مطبوخة غير فى الـ (ويك إند) أو نهاية الأسبوع، مثل يوم الجمعة عندنا.. وفى كل أيام الأسبوع يعدون الوجبات على القد بالضبط وليس أكثر من الذى سيؤكل فعلاً.. إذا كنت ستأكل بيضتين أو قطعتين من (الهامبورجر) فإنك لن تقلى ٦ بيضات ولن تسخن ٨ قطع (هامبورجر) تأكل منها ثم تضع الباقى فى الثلاجة.. ومطابخهم ليس فيها مكان لتحفظ فيه (حلل) الأكل لكى يأكلوا منه فى اليوم الثانى واليوم الثالث.. وحين تطبخ الزوجة الانجليزية يوم السبت أو الأحد لزوجها وأولادها فحين ينتهى الغداء يكون كل الأكل المطبوخ قد انتهى، وتغسل أوانى الطبخ وتعود إلى مكانها.. الثلاجة يوضع فيها الخبز والعصائر والبيض والزبد واللبن والجبنات وما إلى ذلك.. لكن أكل مطبوخ قطعًا لا..

«أصابع السيدة هذه رائعة.. نحن نعرفها فى إنجلترا كنوع من النباتات لكننا لا نزرعها ولا نطبخها، بل ولا نعرف أصلاً أنها تطبخ.. (أصابع السيدة هى البامية باللغة الانجليزية Lady's Fingers). الأرز أول مرة فى حياتى آكله بهذه الطريقة، إنه يصلح وجبة كاملة وحده.. رائع.. قلت لى إن اسمه أرز معمر.. هل له علاقة برئيس ليبيا، أو هل هو أكلة ليبية

أصلاً !؟.. هذا الصنف اسمه سهل النطق: كشك.. لكن طعمه غير مستساغ فى فمى.. إنه يشبه الـ (بودنج) أو الـ (كاسترد) لكنه حادق وليس حلوا، لذا أستغرب به كثيرًا.. أما (مامة على) هذه فهى رائعة حقيقة لكننى خلاص امتلأت ولم يعد فى بطنى مكان لها.. لماذا تضعون كل شىء على المائدة مرة واحدة وكأنكم تريدون أن تتخلصوا من ضيوفكم فى أسرع وقت ممكن، يأكلوا ويمشوا.. هل يضايقكم لو احتفظت بنصيبى من (مامة على) فى الثلاجة لكى أتناوله مع الشاى فى المساء»؟.. ثم وضعت نصف الصينية فى طبقها ووضعته فى الثلاجة بنفسها.. ذكرتنى بشىء لا زلت حتى الآن أضحك له بعد ١٥ سنة قضيتها فى أمريكا وإنجلترا: الثلاجة الإنجليزية سواء فى البيت أو فى مكان العمل، تبدو وكأنها مقسمة إلى خانات.. إذا اشترى أحد أفراد البيت شوكولاتاية مثلاً ولن يأكلها كلها مرة واحدة فإنه يضع بقيتها فى الثلاجة ويلصق عليها ورقة صغيرة مكتوب عليها اسمه.. إذا أكل نصيبه من الفاكهة وبقى إصبع موز أو برتقالة أو تفاحة وضعها فى الثلاجة ليأكلها فيما بعد، ولصق عليها ورقة صغيرة عليها اسمه.. إذا اشترى الابن أو البنت قطعة جبن لم يأكلها كلها وبقيت منها قطعة فى حجم طابع البريد: لصق عليها ورقة عليها اسمه.. علبة كوكاكولا، زجاجة لبن، قطعة زبد، علبة عصير.. إلخ.. وتفتح الثلاجة الانجليزية – فى البيت أو فى مكان العمل – فتجدها مليئة بهذه الأوراق الصغيرة التى تحمل أسماء أصحابها.. وياويله وياسواد ليله من تحدثه نفسه بالاعتداء على «ممتلكات الغير»!.. حكى لى صديق انجليزى شاب فى أوائل عشريناته أن أختيه التوأم – ١٦ سنة – فقعتاه مرة علقة

هائلة لأنه تجاسر واستولى على بقية شوكولاتاية صغيرة تخص إحدى التوأمين.. وأيد أبوه وأمه موقف البنتين وقالا له ما معناه: إنت اللى جبته لنفسك.. تستاهل»..

لذا لم أندهش حين فتحت الثلاجة عصرًا فوجدت ورقة صغيرة عليها إسم «مارجريت» على طبق (أم على) بتاعها !!

بعد الغداء قلت لمارجريت: «سأدخل الآن لأنام ساعتين أو ثلاثة، وأنت خذى راحتك: إذا أردت أن تنامى أو تشاهدى التلفزيون أو تدردشى مع ثناء.. البيت بيتك فافعلى ماتشائين».. قالت بحدة: «تنام الآن فى عز النهار!؟ وماذا سوف تفعل بالليل إذن!؟ إن اليوم ٢٤ ساعة فقط يا مستر قدرى وأنا لم أجئ إلى مصر لكى أنام فترة العصر.. جهز نفسك للنزول حالاً.. تعالى معى ياثناء.. سنكون جاهزتين للنزول بعد ١٠ دقائق بالضبط» !!

بعد ١٠ دقائق فعلاً كنا نركب الأندرجراوند - الذى أصبح هواية مارجريت المفضلة طوال زيارتها لمصر، حتى أنها بعد أسبوع واحد كانت تستطيع أن تذهب إلى وسط البلد وحدها لتتسكع فى المحلات وتتفرج على الناس على راحتها - وبعد خمس دقائق أخرى كنا على باب المتحف المصرى أو دار الآثار المصرية فى ميدان التحرير.. وسلمنا الأستاذ «محمد حسن» مدير المتحف إلى المرشدة الشابة الجميلة «أميمة» التى أخذتنا فى جولة طويلة فى المتحف شرحت لنا ولمارجريت شرحًا وافيًا لكل ما رأيناه، وهى بين حين وآخر تسألنى إن كانت إنجليزيتها واضحة بالنسبة لمارجريت.. لكننى فى الحقيقة كنت خجلاً جدًا من نفسى، وهمست

لثناء بأننى زرت المتحف المصرى مرتين فقط طول حياتى، مرة وأنا تلميذ فى ابتدائى فى رحلة مع المدرسة، والمرة الثانية كانت منذ ٢٠ سنة حين صحبت زميلة صحفية هندية لزيارة المتحف.. رغم أنه فى طريقى من بيتى إلى مكتبى مرتين كل يوم على الأقل.. فهمست لى «ثناء»: «حضرتك على الأقل زرته مرتين من قبل.. أنا عمرى الآن ٢٦ سنة ولم أزره فى حياتى إلا الآن، بل - فى الحقيقة - لم أفكر أبدًا من قبل فى زيارته.. بذمتك دى مش حاجة تكسف إن الأجانب ييجوا من بلادهم من آخر الدنيا علشان يزوروا متاحفنا، واحنا المصريين حتى لا تخطر على بالنا زيارتها.. لكن أرجوك ألا تذكر ذلك لمارجريت لأنها سألتنى ونحن فى غرفة النوم نستعد للنزول: هل رأيت المتحف المصرى؟ فقلت لها: كثيرًا جدًّا.. ولم أكن أكذب، لأننى أقصد طبعا أننى رأيته من الخارج وأعرف أنه فى ميدان التحرير»!!

وفى المساء جلسنا «مارجريت» و «ثناء» وأنا، فى فراندتى التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، والتى أعتبرها أجمل وأكبر وأوسع فراندة فى مدينة القاهرة الكبرى إن لم يكن فى مصر كلها.. لا أعرف مساحة ملعب كرة القدم بالضبط قد إيه، لكن فراندتى مساحتها تماثل ربع مساحة ملعب كرة القدم!! المهم جلسنا فى المساء نشرب الشاى وتأكل «مارجريت» عدة ملاعق من طبقها (أم على)، ثم تعيد الطبق إلى الثلاجة مرة أخرى مع التنبيه المشدد بأن هذا هو طبقها الخاص وأن أى اعتداء على طبقها سوف تعتبره عدوانًا على إنجلترا كلها، وسوف تقابله بالمثل..

وجاء عدد من الأصدقاء لزيارتنا فى المساء للترحيب والاحتفاء بمارجريت التى سمعوا عنها كثيرًا منى.. وكانت دهشتها كبيرة حين فوجئت بهم يحملون لها عددًا من الهدايا التذكارية رغم أنهم لا يعرفونها بعد وأول مرة يرونها فيها.. قدمت لها «إيلين» و «حياة» مروحة يد أنيقة جدًّا، وقالت لها «إيلين» - اليونانية الأصل المولودة فى صعيد مصر ولا تعرف كلمة واحدة من اللغة اليونانية ولا الإنجليزية، ولا تجيد من اللغات «الأجنبية» إلا اللهجة الصعيدية وارد قنا -: «أيوه يا حبيبتى.. حاتنفعك فى الحر ده اللى انتى مش واخده عليه فى بلدكم».. وقدم لها أستاذى «عزالدين رضوان» صينية حلويات شامية فاخرة.. وقدم لها «سيد محيي الدين» لوحة فرعونية كبيرة مرسومة على القماش لكى تأخذها معها إلى إنجلترا لتبرزها وتعلقها فى بيتها تذكارًا لزيارتها لمصر.. وقدمت لها «سعاد حسين» خاتمًا بفص من الفيروز اشترته لها من مكة وكانت تنوى أن ترسله لها فى لندن معى.. وقدم لها «عادل» دعوة مفتوحة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) فى الشرقية لكى ترى الريف المصرى وتتذوق الأكل الفلاحى: الفطير المشلتت والجبنة القديمة والعسل الأبيض والحمام المحشى فريك.

وحين طالت القعدة همست «مارجريت» فى أذنى: «أليس من اللائق أن نقدم عشاء للضيوف»!؟ قلت لها: «عندك حق.. كلك كرم» قالت والسعادة تملأ وجهها: «سأنزل أنا وثناء لنشترى العشاء من الرستوران المواجه للعمارة.. سنعشى الضيوف من ذلك الكيك المصرى الرائع.. تأمية»!!

أخيرًا حفظت اسمها، لكن عذرًا للكنة: طعمية!!

الفصل الثالث

نابليون بونابرت.. إجازة يوم الجمعة!

فى الصباح ونحن جالسون للإفطار قالت لى «مارجريت»: «فلقت دماغى بأحاديثك التى لا تنتهى عن طفولتك السعيدة، وعن حبك لوالديك وحب والديك لك.. أريد أن أرى البيت الذى ولدت فيه والحى الذى نشأت فيه».

ونزلنا لنركب الأندرجراوند - هواية «مارجريت» المفضلة الآن، بعد الطعمية - ونزلنا فى محطة السيدة زينب.. كان عيد الأضحى على الأبواب وباقٍ عليه أيام قليلة، لذا فبمجرد خروجنا من باب محطة السيدة زينب، وجدنا أنفسنا فجأة فى وسط قطيع من الخرفان المعروضة للبيع.. وهاصت «ماجى» وزاطت - وهى تحب الحيوانات جدًّا، كل الحيوانات - لمنظر الخرفان تسرح فى الشوارع طليقة هكذا وكأنها ليس لها صاحب.. وراحت «مارجريت» تربت بيدها على رأس ورقبة كل خروف بحنان شديد وكأنه كلب أو قطة!!.. وظن بائع الخرفان أننا جئنا

لنشترى خروفًا، وأن «مارجريت» تتحسسها لتختار واحدًا منها، فوقف من بعيد ينتظر النتيجة: زبونة خواجاية وزوج مصرى.. لكن حين انحنت «مارجريت» على حمل صغير وضمته إلى صدرها وقبلته فى رأسه اتسعت عينا البائع من الدهشة وقطعًا ظن أن الست دى مسكينة مخلولة ومخها مش مضبوط.

ومشينا إلى شارع السد البرانى فشارع التلول، حتى القديمة. وأريتها البيت رقم ٤٣ الذى ولدت فيه، لكنه هدم الآن وبنى مكانه عمارة حديثة.. وحكيت لها حكايات الطفولة وكيف كنا نلعب الكرة الشراب فى الشارع بعد خروجنا من المدرسة، ثم الكرة الكاوتش بعد أن كبرنا شوية.. وكيف كنا نصنع من شنطة كتبنا المدرسية (الجون) الذى يقف فيه حارس المرمى، وكيف كانت نتائج مبارياتنا دائما سخية وكريمة: ١٨-١٤ مثلا أو١١-٩ فى المباريات القوية.. وكيف أن شارعنا هذا وحده قد خرَّج عددًا من أصحاب الأسماء اللامعة فى كل المجالات، خصوصا فى الفن والأدب: من جنينة ناميش التى تعتبر امتدادًا لشارعنا خرج الأديب يوسف السباعى، ومن قبله والده المرحوم محمد السباعى، وغير بعيد عن شارعنا خرج يوسف وهبى، ومحمد كريم، ومحمود تيمور، وزهرة العلا، وبرلنتى عبدالحميد والمذيعتان فاطمة فهمى وجولار عرفان.. ومن شارعنا نفسه خرجت المطربتان شريفة فاضل وثناء ندا ابنتا الشيخ محمد أحمد ندا شيخ الجامع اللى على الناصية وكان بيتهما لصق بالجامع مباشرة، والمخرج المسرحى كرم مطاوع، والممثل حسن يوسف، والكوميدى أحمد الحداد، والمرحوم عبد المنعم إبراهيم. ومن المقرئين الشيخ محمد رفعت، والشيخ

مدين منصور مدين، ومن لاعبى كرة القدم حنفى بسطان وشلة أولاد الحسنى، ومن الديبلوماسيين نبيل عثمان المستشار الإعلامى لمصر فى هيئة الأمم المتحدة، ومن الصحفيين اللامعين - هاها - حسين قدرى..

وطبعا كان الاسم الوحيد من بين كل هذه الأسماء الذى عرفته «مارجريت» هو اسم حسين قدرى فقط..

وصلنا إلى ميدان السيدة زينب.. ورغم أن اليوم كان يوم جمعة والزحام شديد، إلا أننا - ببطاقتى الصحفية المغلفة بورقة من فئة الخمسين قرشا، وبعد أن وضعت «مارجريت» إيشاربًا على شعرها الأحمر - استطعنا أن ندخل مسجد السيدة زينب من باب الحريم، لكى ترى «مارجريت» ضريح السيدة زينب من الداخل لتكون أول مرة فى حياتها ترى فيها ضريحًا.. ولم تهضم عقليتها الأوروبية فكرة (الضريح) وأن يكون هناك شخص ما مدفون هكذا فى وسط واحد من أهم ميادين القاهرة وأن يتكالب الناس رجالاً ونساء، بالآلاف، لزيارة ذلك الضريح كل يوم.. مسألة غريبة على تفكيرها الأوروبى رغم أنها سيدة مثقفة وقرأت كثيرًا عن الإسلام بالذات، لكن هذه هى أول مرة تواجه فيه الأفكار والعادات الإسلامية وجهًا لوجه.

لكن الذى أدهشها جدًّا وأزعجها جدًّا - إلى درجة الفزع - أنها رأت خادم المسجد يضرب النساء المتجمعات داخل الضريح بحزام جلد فى يده لكى يفسح لها هى الطريق حتى تصل إلى الضريح نفسه!! ومع ذلك فقد تقلصت ملامح وجهها وكادت أن تبكى من الرهبة والخشوع

وهى تقف أمام الضريح بأعمدته النحاسية اللامعة، ونقوشه العربية الدقيقة، وإحساسها بأنه فى داخل هذا الكشك النحاسى المربع يرقد جثمان سيدة من بيت النبى محمد ﷺ، عاصرته وعاشرته، وماتت منذ أربعة عشر قرنًا أو أكثر من ١٤٠٠ سنة..

وبمجرد خروجنا من باب المسجد التف حولنا حشد كبير من الشحاتين رجالاً ونساء.. وظنت «مارجريت» أنهم يحيونها ويرحبون بها فابتسمت لهم ابتسامة واسعة وقالت: «هاللو» ونقلت شنطة يدها إلى يدها اليسرى لكى تبدأ فى مصافحتهم.. لكننى جذبتها من ذراعها لكى أخرج بها من وسط هذا الحشد قبل أن تكتشف الحقيقة وننفضح أمام الأجانب.. وأكدت لها ظنها أنهم يحيونها لأنهم عرفوا أنها أجنبية من شعرها الأحمر.

بعد مسجد السيدة زينب أخذتها لمشاهدة متحف (بيت منج) الأثرى فى حارة (منج) وراء المدرسة السنية.. (بيت منج) على قدر ذاكرتى كان مقر قيادة «نابليون بونابرت» أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ثم أصبح بيت واحد من قواده بعد ذلك: «كليبر» أو «مينو» لم أعرف بالضبط، لأننا فوجئنا بأن البيت المتحف كان مقفلاً لأن اليوم هو يوم الجمعة.. وكأن المسئولين عن الآثار أو المتاحف فى مصر يعتقدون أن السياح لا يجيئون إلى مصر فى أيام الجمعة!

وعدنا إلى شارع الشيخ البغال فى السيدة زينب لكى أفرجها على السوق المفتوح المقام فى الشارع.. فشاهدت الباعة وهم يعرضون بضاعتهم على عربات اليد أو على أقفاص من (الجريد) موضوعة على

الأرض.. ورأت محل (الفرارجى) الذى يبيع الفراخ والحمام والبط والأوز والأرانب، وأعجبها شكل المحل جدًّا لأنه ليس موجودًا فى أوروبا كلها محلات من هذا النوع، لأن ذبح أى شىء غير مسموح به فى البيوت فى أوروبا.. لا تستطيع أن تشترى فرخة صاحية أو بطة صاحية لكى تذبحها فى بيتك.. سوف يذبحك الجيران، ويذبحك البوليس الانجليزى لو اكتشف أو لو أبلغ عنك أحد.

ورأت «مارجريت» محلات السماكين والسمك الحى يلعب ويلعلط ويتنطط صاحيًا فى طشوت وأحواض مليئة بالماء موضوعة على الرصيف فى الشارع أمام المحل، وهو لا يعرف أنه بعد ساعات قليلة سوف لا يتنطط ولا يتلعلط ولا حاجة أبدًا بعد أن يكون قد استقر فى بطون أهالى حى السيدة زينب الكرام.

وأعجبت مارجريت تمامًا - كفنانة - بحوارى السيدة زينب الضيقة المبلطة بالبلاط الحجرى المربع الكبير.. وفى سوق شارع سلامة - (حيث جرت أحداث رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم) - فتحت عينيها - الخضراوين الجميلتين - على اتساعهما وهى ترى ثمار الفراولة الحمراء الزاهية الجميلة الرائعة، معروضة فى (قفة) على الأرض والكيلو منها يباع بـ ٥٠ قرشا مصريا فقط، يعنى أقل من ٩ بنسات إنجليزية، بينما الرطل الواحد منها يباع فى إنجلترا بجنيه استرلينى كامل أو خمسة جنيهات ونصف مصرية.. فسألتنى كم تزن هذه القفة تقريبًا !!فقلت لها: «حوالى ١٠٠ أو١٥٠ كيلو.. هل تريدين أن تأخذيها كلها!؟» فقالت بحسرة: «لا .. نأخذ ٤ كيلو فقط.. لكن اسأل البائع هل هو موجود هنا كل يوم،

أو اقترح عليه أن ينتقل ليجلس تحت العمارة عندنا فى ميدان رمسيس» ومن فرط سعادتها كادت أن تقبل البائع الصعيدى وهو يعطيها كيس الفراولة فى يدها لولا أننى حذرتها من تقبيله وإلا فقد يطلب منها أن (تصلح غلطتها).. وكانت طول الوقت - منذ أن وصلت إلى مصر - وهى تذكرنى بشىء ما وأنا أقول لها «حاضر»، حتى وجدته فى سوق شارع سلامة، فاشتريت لها: كيلو تمر هندى!! كانت قد ذاقته مرة عندى فى بيتى فى لندن فظلت تتحدث عنه وعن طعمه ومذاقه الرائع لمدة خمس سنوات بعد ذلك، وأظنها ما ظلت على صداقتى طوال هذه السنوات إلا طمعًا فى أننى سوف أشترى لها يوما كيلو تمر هندى من السيدة زينب، وها قد حدث، وأظنها سوف تهجرنى الآن بعد أن نالت منى ما كانت تبغى..

قالت لى «مارجريت» بعد أن خرجنا على وش الدنيا إلى ميدان السيدة زينب، إن الأسواق المفتوحة فى الشارع موجودة فى لندن وفى كل مدن أوروبا، لكنها هناك منظمة ومنضبطة إلى الحد الذى يفقدها بهجتها كأسواق مفتوحة.. لكن السوق الذى رأته اليوم فى السيدة زينب بطابعه المحلى والشرقى تمامًا والزحام والصخب والزيطة، وأصوات الباعة العالية ينادون على بضاعتهم بطريقة منغمة وكأنهم يغنون، ويهللون للزبائن ويتبادلون معهم المرح والمداعبات والهزار ويعطونهم (كبشة فوق البيعة).. كل هذا «الجو» الموجود هنا هو الذى يجعل للسوق هنا طعمًا شرقيًا مختلفًا تمامًا عن السوق فى أوروبا.

ونظرت مارجريت فى ساعتها فقلت لها على الفور: «نعم، نحن فى

مصر أيضًا نتناول وجبة الغداء.. ورغم أن حى السيدة زينب هو أشهر مكان لعمل صديقتك الطعمية فى مصر، إلا أننى سأدعوك اليوم إلى أكلة أخرى.. أشهر أكلة مصرية فى العالم كله، ومن يتذوقها مرة يظل يتذكرها طول عمره »..

وهكذا تعرفت «مارجريت» على الكباب والكفتة لأول مرة.. وأعجبت بهما إلى أقصى حد.. واتهبلت على سلطة الطحينة حتى أنها أخذت الطبق من وسط المائدة ووضعته إلى جانبها ووضعت ذراعها حوله لكى تستأثر به وحدها.. ولأننى شبعان من سلطة الطحينة فقد اكتفيت بمشاهدة ذراعها الذى بدا لى أظرف كثيرًا من سلطة الطحينة.. وفرحت كطفلة صغيرة وهى ترانى أقطع رغيف العيش البلدى بيدى بدون سكينة. وأغمس لقمة الخبز فى طبقة سلطة الـ (بابا غنوج) بيدى بدون شوكة.. فأزاحت شوكتها وسكينها جانبًا، وفعلت مثلى وهى فى غاية السعادة.

بعد أن انتهينا من الغداء سألتنى: «ما هو برنامجنا بعد ذلك !؟.. قلت لها وقد عمل الكباب والكفتة عمايلها، وشعرت بجفنىَّ يتثاقلان: «لا شيء سنعود إلى البيت لنستريح قليلًا، ثم نفكر فيما نفعله فى المساء» قالت: «عد أنت إلى البيت، ونم ١٠ ساعات إذا شئت.. أما أنا وثناء فإن لدينا مشوارا آخر.. تعالى يا ثناء».. وأخذت ثناء فى يدها وتركتانى !

حكت لى «ثناء» بعد عودتها إلى البيت أن «مارجريت» قالت لها إن زيارة واحدة للمتحف المصرى لا تكفى، وأنها تريد أن تقوم فيه بجولة أخرى على راحتها، وتأخذ وقتها فيه دون أن تكون معها مرشدة سياحية (تسربعها) وتنقلها نقلات سريعة على كيفها وكأنها تدلق عليها شوية

المعلومات اللى هى حافظاهم لكى تخلص منها وتعود إلى مكتبها.. لذا فقد ذهبت هى و «ثناء» مرة أخرى إلى المتحف المصرى فى ميدان التحرير حيث قضيتا فيه ٤ ساعات كاملة شاهدتا فيها جناح توت عنخ آمون.. وكانت «مارجريت» هى التى تشرح لثناء التاريخ المصرى الفرعونى الذى درسته - مارجريت - مرتين: مرة وهى تلميذة فى المدرسة الثانوية، ومرة وهى طالبة فى كلية الفنون الجميلة، حين درست الفن الفرعونى المصرى القديم.. وقالت لى «ثناء» إنها كانت سعيدة جدًّا، وهى تستمع إلى شرح «مارجريت» لها للتاريخ المصرى لأنها - ثناء - كانت قد نسيت أصلا شوية التاريخ الذى درسته وهى تلميذة فى إعدادى، ثم ألقته وراء ظهرها تمامًا بمجرد أن انتهت من امتحانها فيه.. وأتذكر الآن أننى سألت «ثناء» مرة وهى طالبة فى كلية التجارة: «ثناء عندك فكرة عن التاريخ المصرى؟» فقالت مندهشة: «أعرف التاريخ الميلادى والتاريخ الهجرى والتاريخ القبطى: أمشير وطوبة وكوبا وحاجات كده.. لكن فيه حاجة اسمها التاريخ المصرى كمان»!!

هايلة «ثناء» دى.. يابخت تلامذتها بيها..

حين عادت مارجريت و «ثناء» إلى البيت عصرًا كنت قد نمت واسترحت وقمت.. وشربنا الشاى فى الفراندة وقد خلعت «ثناء» حذاءها وفردت ساقيها أمامها لتريح قدميها اللتين تعبتا من اللف مع «مارجريت» طول اليوم.. بينما «مارجريت» وفنجانها فى يدها تدور على قدميها كالنحلة. لكى تستمتع برؤية القاهرة كلها من هذا الارتفاع..، ثم جاءت لتضع فنجانها على المائدة أمامنا وهى تقول: «١٠ دقائق فقط

وسأكون مستعدة وجاهزة للنزول» فقالت «ثناء» بفزع: «والله العظيم حاعيط.. نزول!؟ عايزة تروحي فين تاني؟ إنت مابتتعبيش!؟» قالت «مارجريت»: «مش احنا معزومين على سهرة فى العاشرة مساء؟ الساعة الآن السادسة.. هل سنقضى ٤ ساعات قاعدين فى البيت نتأمل فى جمال بعض ولا نفعل شيئًا مفيدًا!؟.. تعالوا نخرج نروح أى مكان، ثم نعود إلى البيت قبل العاشرة.. ما رأيكما فى ذلك!؟»..كشرت «ثناء» تكشيرتها الجميلة وهى تغطس فى كرسيها، وكأنها لا تنوى أن تتحرك من مكانها لمدة ١٠٠ سنة قادمة على الأقل، وقالت: «الدور عليك أنت الآن يا أونكل.. لقد أخذت نصيبى معها اليوم ولن أتحرك من هنا الآن حتى لو قامت الحرب.. فاذهب أنت معها وإذا أكلتما جيلاتى فأرجوك أن تأكل واحدة زيادة بإسمى.. واحدة كبيرة من فضلك» وأغمضت عينيها ونامت فى كرسيها..

ونزلت أنا ومارجريت.. وأمام باب العمارة وجدنا أوتوبيسًا واقفًا فى إشارة المرور، فسألتنى «مارجريت»: «هل هذا الأوتوبيس يذهب إلى أى مكان؟» فقلت لها مندهشًا: «طبعًا، فهو لن يقف هنا طول عمره» فقفزت «مارجريت» فيه على الفور لكى تركب - لأول مرة - أوتوبيسًا قاهريًا.. والمدهش جدًا الغريب جدًا أن الأتوبيس لم يكن مزدحمًا، وكان نظيفًا من الداخل وكأنه لسه خارج من الغسيل حالاً، بل ووجدنا مكانين متجاورين جلسنا فيهما معًا.. وطبعًا لم أذكر لها أن هذه هى أول مرة لى خلال العشرين عامًا الماضية التى أركب فيها أوتوبيسا فى القاهرة. وأجلس على مقعد.. تركتها (على غماها) تظن أن ذلك هو الشيء العادى

الذى يحدث كل يوم.. لأن الظروف كانت كلها مواتية اليوم فيما يبدو، فإنها قد أعلنت انبساطها جدًّا من مهارة سائق الأوتوبيس، وقيادته المتزنة الهادئة، وقارنته بسائقى أوتوبيس رقم ٥٧ اللندنى الذى تركبه أحيانًا ومعظمهم من الانجليز الزنوج المتوحشين الذين يتعاملون مع الأوتوبيس وكأنه سيارة سباق.

ونزلنا من الأوتوبيس بالقرب من مبنى التليفزيون لكى نتمشى على كورنيش النيل من عند ماسبيرو فى اتجاه فندقى سميراميس وشبرد، وهى مبسوطة جدًّا من شكل الجالسين على الكورنيش وقت الغروب: اثنين اثنين، ولد وبنت ولد وبنت، أو أسر بكامل عددها: الأب والأم ودستة أولاد، وحلل المحشى وصوانى السمك ورصة أرغفة العيش البلدى فوق بعضها وأكواب الماء المثلج من الـ (كولمان) الذى ظنت «مارجريت» أن الحكومة توزعه مجانًا على الفقراء فى مصر، لأنها رأت مع كل أسرة (كولمانها) الخاص، ومعظمها بلون واحد، الأزرق أو اللبنى.. وتركتها على اعتقادها فهى لاشك سوف تحكى ذلك لكل أصدقائها ومعارفها بعد عودتها إلى إنجلترا.

واستكملنا تمشيتنا لكى أريها جزيرة المنيل.. أعجبها جدًّا شكل النيل ليلًا والأضواء تنعكس على صفحته المنبسطة الواسعة.. والناس جلوس على السور الحجرى للكورنيش وفى حدائقه الصغيرة رجال وستات وشبان وبنات وأطفال، يأكلون ويشربون ويمرحون، وكل أسرة معها جهاز الراديو الكاسيت بتاعها أو تليفزيونها الصغير بالبطارية حتى لا يفوتهم شىء من البرامج التى يحبونها وهم خارج البيت.. كل شىء

موجود الآن فى مصر فيما يبدو.. باعة الذرة المشوى على الفحم وباعة الترمس بحباته الذهبية على عربات اليد والكلوبات المضيئة وصف قلل الماء.. أعجبها جدًّا منظر الناس يمدون أيديهم فيتناولون قلل الماء ويرفعونها إلى أعلى فيسقط الماء منها إلى أفواههم المفتوحة فيشربون ويرتوون دون أن تلمس القلل شفاههم.. وأرادت أن تقلدهم، وتفعل مثلهم لكننى منعتها بإصرار خوفا من أن (تشرق) وتموت منى «غرقًا» على كورنيش النيل.. أعجبها شكل المبانى القديمة الباقية على كورنيش النيل عمرها قرن من الزمان على الأقل تجاورها وتلاصقها المبانى الحديثة على أحدث طراز معمارى.. أعجبتها الأشجار الضخمة القديمة العتيقة وفروعها تتدلى حتى تلامس الأرض وشكلها يوحى بأنها فى مكانها هذا منذ مئات السنين.

تعبت من المشى فدخلنا واحدًا من الكازينوهات المنتشرة على كورنيش النيل فى هذه المنطقة.. ومن أول لحظة ومن قبل أن نجلس شعرت أنا أننا قد دخلنا «فخا» وليس كازينو.. شكل الجرسونات أقرب إلى الفتوات، وجميعهم متجهمون ورافعون حاجبًا ومنزلون حاجبًا زى فريد شوقى، ويتعاملون مع الزبائن بغلظة وبسخف متعمدين وكأنه نوع من الإرهاب.. طلبنا زجاجتين (سفن آب) فجاء بهما الجرسون بعد أكثر من نصف ساعة ووضعهما أمامنا ومشى.. فناديته وقلت له: «إحنا حانشربهم هنا مش حاناخدهم معانا البيت.. حانشربهم وهم مقفولين»؟! فقال وهو ينظر فى عينى ببرود وكأنه يشتمنى: «حضرتك ما طلبتش منى إنى أفتحهم» قلت مندهشا: «مش عادة إن الزباين هى اللى تفتح

القزايز.. ثم مفيش كوبايات بتيجى مع الطلبات»!؟ فقال بحدة وكأنه موشك أن يمسك فى خناقى: «حضرتك تطلب كل اللى أنت عايزه مرة واحدة علشان احنا مش فاضيين.. الكازينو فيه زباين تانيين غيرك». وتركنا ومشى!!

كان ممكنًا أن أظن أن وجود «مارجريت» معى بشكلها الأجنبى وشعرها الأحمر ممكن أن يكون قد ضايق الجرسون المتدين - مثلاً - لكننى كنت قد لاحظت أن كل الجرسونات يتصرفون بنفس الطريقة مع كل الزبائن، فعرفت أن الأمسية - غالبا - لن تنتهى على خير.. وبعد أن شربنا الـ (السفن آب) - من الزجاجة مباشرة - طلبت الحساب فقال لى الجرسون الفتوة على الفور: «ستة جنيه ٧٥ قرش»!!.. قلت وأنا أشعر كأن نشالاً يهددني بمطواته ليأخذ فلوسى معتمدًا على أن معى فتاة أجنبية، لن أجرؤ أن أجادله أمامها حتى لا أتبهدل أنا وهى: «ستة جنيه و٧٥قرش علشان ٢ سفن آپ ؟! روح هات لى فاتورة بالمبلغ ده» فقال بشراسة: «مابنطلعشى فواتير، وهو الحساب عندنا كده»!! قلت له بغلظة أنا أيضًا: «أنا صحفى وعايز فاتورة ومش حادفع ولا مليم إلا بفاتورة.. وإذا ماكنتش حاتجيب لى فاتورة يبقى حانروح سوا قسم البوليس»!!.. وبهت حين سمع كلمة صحفى وتركني واختفى.. وبعد قليل جاءنى فتوة آخر، مبتسمًا هذه المرة، ليقول لى: «المعلم بيقول لك ادفع اللى تدفعه» قلت له: «مش حادفع ولا مليم واحد إلا بفاتورة» قال: «١٢٠ قرش كويس»!؟ قلت: «كويس.. لكن برضه عايز فاتورة» قال وابتسامته اللزجة تملأ وجهه من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين: «خلاص، خلّى الحساب عندنا المرة دى» قلت: «لا المرة

دي ولا المرة الجاية.. عايز فاتورة وإلا حاخرج من هنا على قسم البوليس دوغري» قال: «اللي تشوفه سعادتك» وتركني واختفى هو الآخر.. ولمدة نصف ساعة التالية لم ألمح جرسونًا واحدًا في كل أرجاء الكازينو.. اختفوا جميعًا وكأنهم يرغمونني على أن ننصرف دون أن أدفع شيئًا حتى لا أقضي الليلة كلها في انتظار الجرسون الذي لن يجيء.. فتركت على المائدة ١٢٠ قرشًا وانصرفنا.

أريد أن أتصور ماذا سوف يفعل بقية زبائن هذا الكازينو وقت الحساب.. أو أن ذلك حدث معي فقط لأنه كانت معي سيدة تبدو أجنبية.. وماذا كان سيفعل اثنان آخران لو كانا كليهما من السياح الذين يشاء حظهم العاثر أن يقعوا في هذا الكازينو أو مثيله!! هل هذه الأماكن تخضع لرقابة ما أو لتفتيش ما مفاجئ من أجهزة السياحة أو شرطة السياحة!؟ هل نعطي السياح وهم داخلون في مطار القاهرة نشرة صغيرة مطبوعة بعدة لغات نقول لهم فيها: «لو خدعكم أحد، أو سرقكم أحد أو غشكم أحد أو هددكم أحد فاتصلوا بشرطة السياحة في هذا الرقم».. أم أن هذه الأماكن والكازينوهات محمية بشكل أو بآخر حتى تستطيع أن تتصرف هكذا دون أن تخشى شيئًا!؟

بعد أن خرجنا من الكازينو طلبت مني «مارجريت» أن أحكي لها ما حدث بالضبط، فحكيته لها كما حدث تمامًا لأنه جزء من المادة الصحفية التي أنا بسبيلها الآن.. فسألتني: «وهل قلت لهم. إنك صحفي لذا تركونا حتى ننصرف فلا تحدث مشاكل»!؟ قلت: «نعم» قالت: «كان يجب ألاّ

تفعل ذلك وأن نذهب إلى قسم البوليس.. وقد فعلت أنا ذلك مرتين وأنا فى إيطاليا».

عدنا نتمشى على الكورنيش مرة أخرى حتى وصلنا إلى فندق شبرد، فانحرفنا يمينًا لندخل إلى ميدان التحرير، فوجدنا أنفسنا أمام جامع عمر مكرم، وكان فيه سرادقان للعزاء فى وقت واحد كما يحدث فى معظم الأيام.. فتوقفت «مارجريت» أمامها وسألتني:؟ Is it a street party.. هل هى حفلة تقام فى الشارع»!؟ فشرحت لها فكرة سرادقات العزاء التى تقام لكى يستقبل أهل المرحوم أصدقاء الأسرة والجيران والزملاء، الذين يذهبون للعزاء، فلايضيق بهم بيت أسرة المرحوم.. فأطلت «مارجريت» برأسها -من على الرصيف الآخر- داخل السرادق وسألتنى مندهشة: «وهل كان للمرحوم كل هذا العدد من الأصدقاء»!؟ قلت: «هذا السرادق يفرغ ويمتلىء مرة أخرى كل نصف ساعة.. نحن شعب عشرى ودود مجامل ونحب أن نأخذ بخاطر بعض فى الأفراح وفى الأحزان.. والأصدقاء عندنا يظلون أصدقاء طول العمر، وليس مثل الحال فى أوروبا حين يترك شخص ما عمله فى موقع ما فإن علاقته بكل زملائه فى هذا العمل تنقطع فورًا وكأنه لم يكن زميلاً لهم لعدة سنوات، أو حين تنتقل أسرة من حى لتسكن فى حي آخر فتنقطع صلتها بكل الجيران السابقين.. إن كل أصدقائى وجيرانى الذين عرفتهم منذ كان عمرى ٦ سنوات لا زالت صلتى بهم مستمرة حتى اليوم، وغالبًا ما يصبح أولادهم أصدقائى وأصدقاء أولادى، وهكذا».. فقالت «مارجريت» فى أسًى: «إننى لم أر أختى الصغرى «چيل» منذ أكثر من ١٥ سنة ونحن

نعيش فى مدينة واحدة، وأولادها الخمسة لا يعرفون ابنتى. ولم يروها طول عمرها، وهم أولاد خالة.. وحين تتصل بى أختى تليفونيا مرة كل سنة، فهى تتصل لمجرد أن تعرف أننى لا زلت على قيد الحياة ولم أمت بعد.. وإذا ردت عليها ابنتى فهى تقول لها: إعطينى مارجريت، أنا چيل.. فتقول لى ابنتى: مامى.. جيل على التليفون، وهى خالتها.. لقد مر على تخرجى من كلية الفنون الجميلة وتركى بيت الأسرة ٢٥ سنة الآن، لم أر أمى خلالها إلا مرة واحدة فقط، وبعد ١٨ سنة لم أرها فيها، حين أصررت أنت على أن ترى أمى، فذهبنا معا لزيارتها منذ ٧ سنوات، ولولا إصرارك لما ذهبت.. هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. لذا تجدنى مندهشة تمامًا من شكل علاقتك بأسرتك، وبأصدقائك الذين لا يخلو منهم بيتك كل مساء.. لقد انتهى شىء اسمه (الصداقة) فى أوروبا كلها الآن.. للأسف».

الذى قلته لمارجريت عن أننا شعب عشرى ودود يقيم للعلاقات الأسرية وللصداقة وللجيرة وزنًا كبيرًا، لم يكن فيه أى قدر من المبالغة فنحن كذلك فعلا..ومن أمثالنا الشعبية (النبى وصى على سابع جار) وهو ترجمة شعبية للحديث الشريف (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)..

حين بدأت حياتى الصحفية كان من بين الذين تعلمت على أيديهم أسرار المهنة: أستاذى الصحفى القديم والكاتب المسرحى الآن «أنور عبد الله».. ثم تشاء الظروف بعد ذلك بعدة سنوات أن نتجاور فى السكن فى عمارة واحدة فى ميدان رمسيس، فتعرفت أيضًا بزوجته الفنانة «سعاد حسين».. وبعد سكنناى العمارة بشهرين بالضبط أنجبا أول إنتاجهما

«أشرف»، وبعد «أشرف» بسنة و ٨ شهور كان إنتاجها الثانى «سماح» قد شرفت.. ومنذ طفولتها كان «أشرف» و «سماح» صديقين لى أيضا وليس والداهما فقط.. «أشرف» الآن هو أحد المديرين فى فندق (شبرد)، و «سماح» هى النجمة الشابة «سماح أنور».

كل هذه المقدمة لكى أصل إلى أننا - «مارجريت» وأنا - مدعوان الليلة من صديقى الشاب «أشرف أنور عبد الله»، وزوجته الروسية الحسناء «جاليا Galia»، لكى نسهر فى سيدنا الحسين لكى ترى «مارجريت» أشهر أحياء القاهرة القديمة.. الحى الذى لا ينام لا ليلاً ولا نهارًا، ويعمل ٢٤ ساعة فى اليوم ٣٦٥ يومًا فى السنة.

حين نزلنا من السيارة أمام الجامع الأزهر مباشرة، وقفت «مارجريت» تملأ عينيها منه وهى تهمس لى: «ذلك تاريخ حقيقى.. جامعة دينية عمرها أكثر من ١٠٠٠ سنة.. وقد سبق الأزهر جامعة أوكسفورد وجامعة كمبريدج - اللتين بدأتا كلاهما كجامعة دينية لدراسة اللاهوت - سبقهما الأزهر بأكثر من ٣٠٠ سنة، وليس بسنة أو سنتين أو عشرة، لكن بـ ٣ قرون كاملة.. فهل تشعرون فى مصر حقيقة بقيمة أنكم تمتلكون أقدم جامعة فى العالم على الإطلاق».

الحارات الضيقة جدًّا فى حى سيدنا الحسين، والأزقة المبلطة، والأضواء المتلألئة والشوارع السهرانة الصاحية طول الليل، ومحلات الكشرى والفطير والبليلة والكبدة والمخ، والمقاهى العامرة بزبائنها وروادها، والناس التى تملأ الشوارع والميدان وكأننا فى عز الظهر والساعة الآن بعد

منتصف الليل بساعة.. والجو المصرى تمامًا الشرقى تمامًا الذى يحوطنا، جعل الفنانة التشكيلية فى «مارجريت» تتمنى لو كان معها دفتر الإسكتشات وأقلامها لكى ترسم مجموعة اسكتشات للأزهر ولحى سيدنا الحسين فى الليل.. قعدنا فى مقهى أو منتدى (السكرية) على موائد أرابيسك عليها صوانى كبيرة من النحاس الأصفر، وكراسى من الخوص المجدول.. والشاى الأخضر فى الأكواب الزجاجية الصغيرة والأطباق الزجاجية ذات الحواف المذهبة والشيشة تكركر حولنا يمينًا ويسارًا، والجرسونات ذوى الجلاليب البيضاء الناصعة وعليها مريلة الجرسون الشهيرة، والقرفة والسحلب والحلبة الحصى.. كل هذه أشياء جديدة تمامًا، ومبهرة تمامًا للعين الأجنبية فى «مارجريت»، كسائحة وكفنانة.. الأزهر وسيدنا الحسين هو الحى اللاتينى المصرى بالنسبة للأجانب، وهو أقدم وأعرق أحياء القاهرة بالنسبة لنا كمصريين.

سهرنا، وضحكنا، وتطايرت القفشات المصرية الروسية الإنجليزية.. ورغم أننا نحن الأربعة كنا أصحاب مهن مختلفة ومجالات عمل مختلفة: الإنجليزية فنانة تشكيلية والروسية مرشدة سياحية، والمصريان فندقى وكاتب، إلا أن التشنيعات والقفشات إنهالت فوق رأس الكاتب المسكين الذى أمثله أنا.. حكى «أشرف» عن الناقد الأدبى الذى كتب يعرض كتابًا لمؤلف مغرور، فقال: والكتاب جيد فسارعوا بشراء نسختكم، فلم يبق منه فى السوق إلا عدة ملايين قليلة من النسخ» !! وحكت الإنجليزية «مارجريت» عن السيدة التى قابلت بالصدفة فى إحدى الحفلات كاتبًا مشهورًا فقالت له: «سيدى إننى مدينة لك، فأمس لم أستطع النوم إلا فى

السادسة صباحًا، وأنا أقرأ كتابك.. بدأت أقرأ فيه فى السادسة إلا خمس دقائق !!.. وسألتنى الروسية «جاليا»: «هل أنت صعيدى»؟ فقلت لها: لا، ليه» !؟.. فحكت لى عن الصحفى الصعيدى الذى ذهب ليعمل فى أوروبا فاشترى بيتا بابه الخارجى من الزجاج، فركب له عين سحرية !!

الفصل الرابع

مارجريت تكتشف سماح أنور!

«مستر قدرى.. ستأخذنى اليوم إلى الأهرامات وأبى الهول، أليس كذلك !؟»

«مارجريت» هى التى تقرر الآن المكان الذى تحب أن تراه فى اليوم الذى تريده.. كونها تعيش فى وسط عائلة مصرية، جعلها تشعر بمنتهى الألفة وأنها ليست سائحة أو ضيفة، وإنما هى عضو فى الأسرة لها نفس الحقوق وليست عليها أى واجبات.. فبنات الأسرة كلهن أحببنها ويخدمنها ويلبين طلباتها وكل رغباتها وهى قاعدة هانم لاتفعل شيئًا إلا أن تتفسح وتتفرج وتنبسط وتنتقد وتبدى ملاحظاتها، والكل سعيد بذلك.. سعداء لأنها سعيدة ومرحة ومبسوطة ومستمتعة بزيارتها لمصر وبالجو العائلى جدًا الذى يحيط بها.

ورن جرس التليفون: الروسية الجميلة «جاليا» زوجة صديقى «أشرف» - فى الشقة تحتنا مباشرة - تسأل: «ماهو برنامجكم اليوم»؟

قلت: «سنذهب إلى الأهرامات وأبي الهول.. لماذا لا تأتيان معنا»؟
قالت: «ذلك ما كنت سأقترحه، أن نقضى اليوم كله معا.. سنذهب معكم إذن إلى الأهرامات، ثم نقضى بقية اليوم بعد ذلك حول حمام السباحة بفندق (رامادا) فى بداية الطريق الصحراوى.. ما رأيكم فى ذلك!؟»

فى منطقة آثار أهرامات الجيزة سلمنا رجل الآثار الشهير. دكتور «زاهي حواس» إلى مفتشة الآثار السمراء الجميلة «ناهد البكرى»- المفتشة هي السمراء الجميلة وليست الآثار طبعا - كتلة ظرف. وخفة دم مصرية «ناهد» هذه.. أدهشنى أن عرفت منها أنها خريجة كلية الخدمة الإجتماعية، فإن إنجليزيتها ممتازة حتى لخريجة قسم إنجليزى من كلية الآداب.. «ناهد» بعد دراسة سريعة فى كلية الآثار، تعد الآن رسالة ماجستير موضوعها (الخدمة الاجتماعية للطفل الفرعونى).. لست أدرى أين ستجد «ناهد» أطفالاً فرعونيين لكى تجرى بحثها عليهم!!

ذهلت «مارجريت» لرؤية الأهرامات الثلاثة وقالت أنها لم تتصور أبدا أنهم بهذه الضخامة.. وسألت نفس السؤال الذى لا يسأله كل السياح فقط، لكن كل المصريين أيضًا: كيف استطاع الفراعنة القدماء أن يصعدوا بهذه الأحجار الهائلة الحجم والوزن - ٢ طن أو٢٠٠٠ كليوجرام للحجر الواحد - إلى هذا الارتفاع الشاهق ولم يكن على أيامهم أوناش تعمل بالكهرباء كما هو الحال الآن!؟ وحتى ونحن لدينا هذه الأوناش الآن، فكم يبلغ حجم الونش الذى يستطيع أن يرفع حجرًا بهذا الثقل إلى هذا الارتفاع: ١٤٦ مترًا!؟ يعنى ارتفاع عمارة من ٥٠ طابقًا!! ثم: أى نوع من (السقالات) وقف عليه العمال المصريون

القدماء حتى استطاعوا أن يغطوا جسم الهرم كله بـ(المونة)، بعد أن رصوا كل هذه الأحجار!؟ أى معجزة هندسية تلك التى أقامها المصريون الفراعنة وتركوها لتعيش بعدهم آلاف السنين، ولازالت تعيش حتى الآن، ربما لالآف أخرى قادمة من السنين!!

«ثم هذه الرمال ليست صفراء، إنها ذهبية.. سواء كان ذلك لانعكاس أشعة الشمس عليها أو لأى سبب آخر، لكنها ذهبية وليست صفراء.. وإذا كانت الرمال هنا لازالت ذهبية بعد كل آلاف السنين التى مرت منذ بناء الأهرامات، إذن فالمنطقة نفسها رمالها ذهبية.. فهل يكون ذلك هو السبب - أو أحد الأسباب - التى جعلت الملك خوفو، ومن بعده ابنه وحفيده، يبنون الأهرامات فى هذه المنطقة بالذات وليس فى أى منطقة أخرى!؟

«أبو الهول - تستطرد «مارجريت» وكأنها لا تتحدث إلينا لكنها تفكر بصوت عال - أبو الهول مؤكد أن هناك أسرارًا كثيرة تحيط به وبمعناه الذى يرمز إليه، وبسبب إقامته فى هذا المكان، وهو يعطى ظهره للأهرامات ولا يواجهها. أسرار لم تكتشف بعد، وحين تكتشف فهى ستغير تاريخ العالم القديم كله. إن أبو الهول هذا هو مفتاح الأهرامات كلها، وسيكون مفتاح التاريخ الفرعونى كله، الذى قد يكتب من أول وجديد وتحدث فيه تغييرات كثيرة لم تكن تخطر على بال أحد..

«مارجريت» رغم استغراقها فى تأملاتها لم تنس - كرسامة - وجه مفتشة الآثار «ناهد» التى ترافقنا.. مالت علىّ لتهمس لى بعيدًا عن سمع

«ناهد»: «هذه الفتاة جميلة جدًّا.. فرعونية الملامح تمامًا.. ولو رأيت صورتها على طابع بريد لعرفت فورًا أن طابع البريد هذا مصرى.. هل كل البنات المصريات بهذا الجمال الفرعونى»!؟ قلت: «فى الحقيقة لأ.. لكن ربما لأن ناهد تعمل فى هيئة الآثار.

بعد أن انتهينا من زيارة الأهرامات ذهبنا - بناء على دعوة أشرف و «جاليا» - إلى فندق (رامادا) فى أول الطريق الصحراوى لنقضى بقية اليوم فى حمام السباحة.. بعد ٣٠ ثانية من وصولنا، كانت «جاليا» بمايوهها البيكينى قد قفزت فى حمام السباحة الشاسع وراحت تبلبط كبلطية مرحة سعيدة هربت من حر يونيو إلى الماء الرطب، وصاحت بمارجريت تستحثها أن تنضم إليها.. الوقت عند «جاليا» غيره عند «مارجريت».. «جاليا» الآن زوجة المصرى وتعيش فى مصر والوقت أمامها براح.. «مارجريت» الوقت أمامها محدود لأن أجازتها محدودة.. بعد ٣ دقائق نظرت فى ساعتها وقالت لى: «خلاص عرفت أن عندكم فنادق ١٠ نجوم مثل عندنا، وعندكم حمامات سباحة شيك مثل عندنا.. ياللا بينا بأه» قلت لها مندهشًا: «ياللا بينا على فين؟ إننا مدعوان لنقضى بقية اليوم حول حمام السباحة هذا» قالت: «الوقت الضيق لا يسمح لى بهذا الترف.. وعندما أعود إلى لندن أعدك بأننى سأقضى يومًا بأكمله فى حمام السباحة القريب من البيت، لا أخرج من الماء طول النهار.. لكن الآن وأنا فى مصر أحب أن أتفرج على مصر، وأريد أن أركب الأوتوبيس الآن مرة أخرى لكى أتفرج من نافذته على المناطق التى سنمر بها.. ياللا يامستر قدرى»!!

فى مدخل الفندق تقف مجموعة تاكسيات.. ركبنا أولها وقلت للسائق إننا سوف نذهب إلى فندق مينا هاوس - حيث محطة الأوتوبيسات - وهى مسافة لاتزيد عن كيلومتر واحد وأجرها لا يزيد عن ٥٠ قرشا.. لكن السائق قال لى بغلظة وجفاء إن تسعيرة هذه التوصيلة هى خمسة جنيهات!! فقلت له مندهشًا لهذه السرقة العلنى الـ (عينى عينك): «موافق، وسأدفع لك ما تريد حتى لو طلبت ١٠٠جنيه.. لكننى صحفى، وسأسأل فى إدارة المرور وفى شرطة السياحة ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا .. فإذا كان صحيحا فحلال عليك، أما إذا لم يكن صحيحًا فقد، جنيت على نفسك وفقدت رخصتك وسوف يحاسبونك على القديم والجديد وكم سائحًا سرقت منذ أن بدأت العمل» .. وتبعثر سائق التاكسى تمامًا ولم يجد ما يقوله غير أنه ينتظر على باب الفندق منذ السادسة صباحًا دون أن يركب معه زبون واحد، وأنه رب أسرة كبيرة، وأطفاله لم يأكلوا منذ ٣ أيام ووو.. فقلت له إننى قد سمعت هذه الاسطوانة ألف مرة قبل ذلك وليس فيما يقوله الآن شيء جديد علىّ، لأن كل سائقى التاكسى فى الفنادق وفى المطار ينشدون نفس النشيد لجميع الركاب.. وحتى لو كان ذلك صحيحًا فهو ليس ذنب الزبون الذى يركب معك بعد طول انتظارك، وليس مطلوبًا منه أن يدفع لك تعويضًا عن وقفتك على باب الفندق منذ السادسة صباحًا، وإنما الزبون يدفع عن المشوار الذى يركبه فقط لا غير.. ثم، اختصارًا لكل هذه الحواديت: هل هناك فعلًا تسعيرة بأن أجر هذه التوصيلة هو خمسة جنيهات» !؟

وكنا قد وصلنا فعلًا إلى فندق مينا هاوس ونزلنا من التاكسى،

ففوجئت بالتاكسى بنطلق فجأة بأقصى سرعة دون أن يأخذ منى شيئًا على الإطلاق، وكأنه يهرب قبل أن ألتقط نمرته.. لكننى كنت قد التقطتها فعلاً.

من أمام فندق مينا هاوس ركبنا أوتوبيس رقم ٨٨٨ إلى ميدان رمسيس.. مسعدة جدًا ومحظوظة الست «مارجريت» هذه.. ففى كل مرة ركبنا أوتوبيسا بناء على إلحاحها، كان الأوتوبيس رايق وفاضى ونظيفًا وبيلمع وكأنه لسه خارج من (الأجانس) حالاً.. فى الأوتوبيس الذى ركبناه من الهرم وجدت «مارجريت» حاجزًا زجاجيًا يقسم الأوتوبيس من الداخل، فسألتنى: «ليه ده»؟ فشرحت لها مسألة الدرجة الأولى والدرجة الثانية وهى ليست موجودة فى أية وسيلة مواصلات داخلية فى إنجلترا كلها، لا فى الأتوبيسات ولا فى الأندرجراوند.. فأصرت على أن تجلس فى الدرجة الثانية لكى تكون (مع الشعب)!!

وانبسطت جدًا - للمرة الثانية - من ركوب الأوتوبيس، ومن الرحلة الطويلة جدًا التى قطعناها فيه.. فقد اخترق بنا شارع الهرم كله حتى الجيزة، فجامعة القاهرة والدقى، والمهندسين، والعجوزة، والزمالك وبولاق فشارع رمسيس حتى ميدان رمسيس.. وعند نزولنا سألتنى «مارجريت» عن ثمن التذكرة لهذه الرحلة الطويلة؟ فلما قلت لها إنه ١٠ قروش مصرية يعنى أقل قليلاً من ٢ بنس إنجليزى حتى كادت أن يغمى عليها من الدهشة، لأن أقل تذكرة أوتوبيس فى لندن الآن لأربع أو خمس محطات فقط هو ٤٠ بنسًا - (جنيهان مصريان ونصف تقريبا) - وأقل تذكرة فى الأندرجراوند اللندنى ثمنها ٨٠ بنسا - (٤ جنيهات مصرية

و ٤٠ قرشًا) - وربنا يجعل كلامنا خفيف على هيئة النقل العام المصرية !!

مدعوان للغداء اليوم عند صديقتى الصغيرة الفنانة الشابة «سماح أنور» فى شقتها الجديدة فى المهندسين.. جرت العادة منذ سنوات بعيدة أننى فى أول يوم أعود فيه إلى مصر فى أجازة من عملى فى إنجلترا، أن تكون أول وجبة أتناولها فى مصر - غداء أو عشاء حسب موعد وصولى - فى بيت أقرب أصدقائى إلى قلبى: أستاذى الكاتب «أنور عبد الله» وزوجته الفنانة الكبيرة «سعاد حسين».. «سعاد» ست بيت رائعة وطباخة أكثر من رائعة.. وحدث ذات مرة أن عدت من إنجلترا لكى أجد أن «سعاد» فى رحلة (العُمرة) السنوية - فهى تؤدى العمرة كل سنة منذ أكثر من ١٠ سنوات - ومع ذلك فقد كانت مائدة العشاء رائعة مهولة كالمعتاد وأكثر شوية.. فقلت لسماح وأنا سعيد فعلاً: «تسلم إيديكى ياسموحة، بنت ماما صحيح، الأكل حقيقى رائع» فوضعت «سماح» وجهها فى طبقها ولم تنطق بكلمة، لكن باباها «أنور عبد الله» صاح بى مستنكرًا «سماح!؟ دى سماح ما بتعرفشى تسلق بيضة.. أنا يا أستاذ اللى طبخت الأكل ده كله».. فقلت لسماح ناصحًا: لا ياسموحة ياحبيبتى. لازم تتعلمى إزاى تطبخى.. افرضى إنك ما اتجوزتيش، تحتاسى»!!

لكن الحمد لله إن «سعاد» موجودة الآن، وهى التى - احتفاء بمارجريت - قدمت لها سفرة مصرية خالصة، زاغت عينا «مارجريت» فيها يمينًا ويسارًا، تريد أن تأكل من كل شيء وتتذوق كل شيء وتتعرف

ما هذا وما ذاك.. لكن العين بصيـرة والمعدة الأوروبيـة صغيرة بحكم التعود.. حتى صاحت فى النهاية، وهى تخبط على السفرة بيديها الاثنتين كالأطفال المقموصين: «تانى مرة لما تعزمونى اعملوا صنف واحد فقط أو صنفين، علشان أعرف أستمتع بالأكل وأشبع.. لكن بهذه الطريقة لا أنا أكلت من كل صنف حتى أعرف ما هو، ولا أنا قادرة على أن آكل أكثر من ذلك، فماذا أفعل»؟!.. وأجابتها «سماح» على الفور: «اكتبى لأمينة السعيد» فقالت «مارجريت» مندهشة: «ماذا؟!» قالت «سمـاح» وهى تدفس وجهها فى طبقها: «ولا حاجة.. قصدى بالهنا والشفا».

كانت مارجريت قد تعرفت بأنور وسعاد وسماح فى لندن، التى زاروها عدة مرات، والتقت بأشرف كثيرًا فى بيتى فى لندن، حين كان يدرس إدارة فنادق فى بلفاست فى أيرلندا، وكان يقضى عطلات نهاية الأسبوع دائمًا معى فى لندن.. «مارجريت» تعرف الأسرة كلها، وتعرف أنها أسرة فنية: «أنور» كاتب مسرحى، «سعاد» ممثلة كبيرة، «سماح» ممثلة صـاعدة، «أشرف» - بجانب عمله الفندقى - يختار الموسيقى التصويرية للأفلام والمسرحيات.. لكنها لم تر أى شىء على الإطلاق من أعمـالهم الفنية: لا أفلام، ولا مسرحيات، ولا مسلسلات تليفزيونية.. فإننى مصر بشدة على ألا يدخل الفيديو بيتى اللندنى، لأننى فى لندن لا وقت لدى لكى أجلس لمشاهدة الفيديو.. التليفزيون الانجليزى رائع خطير مهول: ٤ قنوات عامة يراها الجميع + أكثر من ٣٠ قناة خاصة، تستطيع أن تراها إذا دفعت رسوما معينة.. ولو تركت نفسى للتليفزيـون فسوف أجلس أمامه ٢٤ساعة فى اليوم تلميذًا مطيعًا فى مدرسة التليفزيون الإنجليزى..

لذا فقد ألزمت نفسى بألا أشاهد فيه إلا نشرات الأخبار وبرنامج واحد وفيلم واحد أو تمثيلية واحدة كل يوم مهما كانت الأسباب وحتى لو كان عندى فراغ يسمح بأكثر من ذلك، حتى لا أتعود على مسألة (أكثر من ذلك) هذه.

لذا، فبعد الغداء طلبت «مارجريت» أن تشاهد شيئًا لسماح وسعاد على الفيديو.. فعرضت «سماح» لها مقتطفات من بعض المسرحيات التى قامت ببطولتها.. وضحكت «مارجريت» كثيرًا وهى تتفرج على «سماح» وهى ترقص فى مسرحية (راقصة قطاع عام) وقالت لها: «هذه هى أول مرة أكتشف فيها أن لك ساقين مثلنا.. فإننى لم أرك أبدًا، لا فى لندن ولا فى مصر، ولا حتى فى البيت، بغير البنطلون.. أنت فتاة جميلة ومليئة بالأنوثة، فلماذا تصرين على أن ترتدى هذه الملابس الغريبة التى تجعلك تبدين كما لو كنت Tomboy - (Tomboy تعبير إنجليزى توصف به البنت التى تتشبه بالصبيان وترتدى ملابسهم وتتصرف مثلهم).. ثم كانت المفاجأة الأكبر لمارجريت حين عرضت لها «سماح» على الفيديو فيلمها (حالة تلبس) الذى تقوم فيه بدور ضابطة بوليس وتقود موتوسيكلًا ضخما (هارلى) فى زحمة مرور القاهرة، تطارد به مجرمًا هاربًا حتى تقبض عليه.. وتأكدت «مارجريت» - بحكم أن لديها خبرة سينمائية - من أن «سماح» هى التى تقود ذلك الموتوسيكل الضخم بنفسها فعلًا وليست دوبليرة.. وصفقت - «مارجريت» وليست «سماح» - لسعاد حسين التى قامت بدور أم سماح فى المشهد الذى تصاب فيه بالشلل فجأة حين يموت أمام عينيها ابنها الصبى الصغير أخو

«سماح» فى الفيلم.. وبصمت «مارجريت» بأصابعها العشرة - بالإنجليزية - على أن «سماح» ممثلة ممتازة، وأن «سعاد» ممثلة رائعة، وأن الغداء كان أكثر من رائع.. وذلك للعلم.

مشاكسة هذه السيدة ومغرم بأن تنكش الآخرين وتثيرهم، مثلى تمامًا.. اليوم صباحًا قالت لى: «أليس غريبًا أن تكون مصر هى أهم بلد إسلامى، ومع ذلك فليس فيها متحف إسلامى واحد»؟!! قلت لها مغيظًا: «عندنا فى مصر مثل شعبى يقول: لو صبر القاتل على المقتول لمات لوحده.. اليوم بالذات هو يوم المتحف الإسلامى، حتى شوفى» وأريتها برنامج زيارتها مكتوبًا بالتواريخ، والأماكن باللغة الإنجليزية.. فقالت لكى تزيد غيظى أكثر: «أعرف.. فقد رأيته صباحًا على مكتبك حين استيقظت قبلكما لكى أعد الشاى» !!.. كارثة هذه السيدة.. أعذر زوجها الذى طفش منها وترك لها إنجلترا كلها وعاد إلى وطنه إيطاليا ومن هناك أرسل لها ورقة الطلاق على يد محضر إيطالى..

المسافة بين بيتى فى ميدان رمسيس والمتحف الإسلامى فى باب الخلق مسافة ليست كبيرة وممكن أن تقطعها سيرًا على الأقدام فى أقل من نصف ساعة.. لكن المشوار يستحق المشى، لأنه كله مشاهدات تهم السائح الأجنبى الذى يزور مصر لأول مرة ولم ير هذه المنطقة من قبل.

شارع (كلوت بك) الذى يبدأ من ميدان رمسيس وينتهى إلى ميدان العتبة الخضراء، هو أحد شوارع القاهرة القليلة جدًّا الآن الذى لا زالت باقية فيه (البواكى) التى كانت طراز مبانى القرن الماضى.. وشهرة الشارع ليست فقط مستمدة من وجود البواكى فيه، لكن أيضًا لأنه كان

(حى البغاء) الرسمى، حتى أواخر الأربيعينات.. وكان يطلق عليه أيضًا (وش البركة) و (الواسعة) و (الأزبكية) و (البواكى).. الحارات المتفرعة منه مرتفعة عن مستوى الشارع فتصعد إليها بخمس أو ست درجات عريضة من الحجر بعرض الحارة نفسها.. وحين تصل إلى أعلى هذه الدرجات تجد أمامك الباب الخشبى السميك القديم جدًّا الذى كانت الحارة تغلق به، والذى لم أر مثيله فى أى منطقة أخرى فى القاهرة إلا فى هذه المنطقة، ولعل ذلك كان له علاقة بكونه كان حياً للبغاء.. ولا زالت هذه الأبواب موجودة حتى الآن.. ثم الحارات نفسها مبلطة ببلاطات حجرية مربعة كبيرة مثل معظم حارات القاهرة فى وقت من الأوقات وحتى أوائل الخمسينات قبل أن يزحف الأسفلت من الشوارع الرئيسية ليغطى الشوارع الفرعية الصغيرة ثم الحارات.. وقلت لمارجريت إننى كنت أحب أن أريها هذه المنطقة من الداخل لولا أننى لست متأكدًا من مدى الأمان فى التجول فيها الآن، وهل لازالت منطقة خطرة أم لا ، سيئة السمعة أم لا، مشبوهة أم لا.. لذا فمن الأفضل أن تشاهديها من الخارج فقط ونحن نمر من شارع كلوت بك..

سألتنى مارجريت: هل فكرت مرة فى أن تكتب تحقيقًا صحفيًا عن تاريخ هذه المنطقة وسمعتها زمان، وهل لا زالت هذه السمعة تؤثر على سكانها الحاليين، وما علاقة سكانها الحاليين بسكانها القدامى، هل هم أولادهم. وأحفادهم أم ناس مختلفون تمامًا؟ وهل كان البغاء فى هذا الحى يمارس بشكل (عائلى) أو (أسرى)، يعنى سكان البيت كله، يمتهنون هذه المهنة ويعيشون منها، ويتوارثها الصغار عن الكبار، والبنات عن الأمهات

والجدات، وهكذا.. وهل كانت الأم التى تمارس البغاء تعد ابنتها وتهيئها منذ صغرها لأن تكون هذه هى مهنتها حين تكبر وتنضج!؟ وهل كان الآباء والأعمام والأخوال والأخوة الرجال، هم الذين يديرون ويشرفون على نسائهم اللاتى يشتغلن بالبغاء!؟ وهل كان يحدث أن «تنحرف» بنت من البنات وترفض أن تشتغل بالبغاء لكى تصبح موظفة فى الحكومة أو فى شركة أو مدرسة مثلاً!؟ وهل كان يعيش فى نفس المنطقة ناس آخرون عاديون لا علاقة لهم بمسألة البغاء هذه!؟.. وقلت لى إنه كان (بغاء رسميا) يعنى معترف به من الدولة والحكومة. فهل كانت البغايا والمومسات لهن سجل تجارى وماسكين دفاتر محاسبية، ويدفعن ضرائب للدولة وأشياء من هذا القبيل باعتبار أن البغاء عمل تجارى يدر إيرادًا وربحًا!؟ هل كن يعلن عن (بضاعتهن) فى الصحف وفى التليفزيون!؟ هل فكرت مرة فى عمل موضوع صحفى هكذا»!؟

قلت: «فكرت، وعدلت.. لأن عندى موضوعات أهم تشغلنى.. ولن يجىء دور (حى البغاء) فى أولويات موضوعاتى قبل ٦٠ سنة أخرى من الآن.. وحين أكتبه سنة ٢٠٥٠ - إن افتكرت، وإن كان لنا عمر - فإننى أعدك بأننى سوف أرسل لك نسخة من المجلة التى سأنشر فيها الموضوع!

مرورا بميدان الخازندار ومحل (سمعان صيدناوى) الذى اختفى منه اسم «سليم سمعان» وبقى اسم «صيدناوى» - وكان اسمه «يوسف صيدناوى» بالمناسبة - رغم أن شهرته عندنا كمحل ملابس ونحن أطفال كان اسم (سمعان) فقط: رايحين محل سمعان واشترينا ده من محل

سمعان، ولم نكن نقول صيدناوى أبدًا.. إلى المسرح القومى فى ميدان العتبة، الذى قلت لمارجريت عنه إنه يعادل مسرح الـ (أولد ڤيك) فى لندن.. إلى ميدان العتبة الخضراء، ومبنى هيئة البريد، ومبنى المطافى.. وحكيت لها عن دار الأوبرا التى احترقت فى أوائل السبعينات ولم نستطع أن نقيم بدلًا منها غير بعد ذلك بعشرين سنة، وأقامتها اليابان نيابة عنا.. وإن كنا – فى الحقيقة – شعب غير «أوبرالى»، بمعنى أن الأوبرا كفن، ليست من بين اهتمامات المصريين، ولا حتى معظم المثقفين منهم.. وأقول «معظم» حتى لا يتقمص منى الـ٣ أو٤ أفراد الذين يدعون أنهم مهتمون بالأوبرا..

وندخل شارع الفن.. شارع محمد على، الذى أصبح اسمه شارع القلعة منذ أكثر من ٣٥ سنة، ومع ذلك فلازال الجزء من الشارع الذى يمتد من ميدان العتبة إلى ميدان باب الخلق معروفًا باسم شارع محمد على حتى الآن.

شارع الفن وشارع الموسيقيين وشارع الراقصات وفرقة حسب الله التى كانت فى البداية فرقة واحدة صاحبها واحد اسمه حسب الله، ثم أصبحت أى فرقة تخرج من شارع محمد على اسمها فرقة حسب الله.. الشهرة كده.. وانبسطت «مارجريت» جدًّا من المحلات التى تبيع الآلات الموسيقية، وتعرض فى واجهاتها الزجاجية الآلات الشرقية الشهيرة، مثل العود، والقانون، والناى، والطبلة، والرق.. أول مرة فى حياتها ترى محلات من هذا النوع.

وفى مواجهة محلات المزيكة هذه مباشرة سوق العتبة الشهير.. الفراخ

والفواكه والأسماك عشرات الأصناف والأنواع والألوان.. كرنفال غذائى قالت عنه «مارجريت» أنه يشبه سوق (كوفنت جاردن) فى لندن الذى ظهر فى فيلم (سيدتى الجميلة) الذى مثلته «أودرى هيبورن» ولكن - مرة أخرى - عندكم حياة أكثر ونبض أكثر وحيوية أكثر..

الحمد لله إنها حتى الآن مبسوطة من كل شىء رأته.

وصلنا أخيرًا إلى ميدان باب الخلق وإلى المتحف الإسلامى الملاصق لدار الكتب القديمة التى لا أعرف ماذا أصبحت الآن.. وهما فى الحقيقة مبنى واحد ينقسم إلى نصفين من الداخل فقط وليس من الخارج.

أمام باب المتحف الإسلامى من الخارج وقفت «مارجريت» وثبتت قدميها فى الأرض كطفلة عنيدة، وتربست وحمرت لى عينها - الخضراء الجميلة - وقالت: «اسمع.. احتفظ ببطاقتك الصحفية فى جيبك اليوم.. لا أريد مفتشة آثار ولا مرشدة سياحية.. إن كل البيانات مكتوبة على كل المعروضات باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، وأنا أجيد لغتين منها + ٤ كلمات من اللغة الثالثة.. فهل تسمح بأن تتركنى أتفرج وأشاهد هذا المتحف على راحتى، وبدون حرس شرف يشوش علىّ متعة المشاهدة».

وعلى الرغم من أن «مارجريت» خرجت من زيارتنا للمتحف الإسلامى وهى شديدة الانشراح والابتهاج، وقالت لى: «لو أن زيارتى لمصر كانت فقط لكى أزور هذا المتحف لقلت إنها تستحق.. أنا الآن سعيدة تمامًا تمامًا، ولا أريد أى شىء على الإطلاق بعد ذلك» ونظرت فى ساعتها ثم قالت بخبث: «إلا الغداء طبعًا»!!.. رغم هذه السعادة البالغة

التى أبدتها فنانة تشكيلية أوروبية لها قيمتها ولها وزنها - ٥٥ كيلو - إلا أننى لا أدرى لماذا شعرت أن محتويات المتحف قليلة جدًّا، وأن المتحف واسع الأرجاء جدًّا بالنسبة لكم المعروضات حتى ليبدو وكأنه فاضى. وأذكر أن هناك أشياء كثيرة رأيتها من قبل فى زياراتى العديدة لهذ المتحف لم أرها هذه المرة.. وأشياء أخرى - كثيرة أيضًا - رأيتها فى جناح المتحف الإسلامى الذى كان ملحقا بدار الكتب نفسها يحتل إحدى قاعاتها الفسيحة، أيضًا هذه التحف لم أرها فى المتحف الإسلامى اليوم.. لكن بما أن «مارجريت» لا تعرف ذلك ومبسوطة وسعيدة إلى هذ الحد بما رأته اليوم فى المتحف الإسلامى، فالحمد لله.

«ماذا تريدين أن تتغدى اليوم يا مدام»!؟.. «أعجبنى كثيرًا ذلك اللحم المفروم المعمول على شكل أصابع ومشوى على الفحم».. «اسمه كباب وكفته» «كيباب وكوفتا».. «لأ.. كباب وكفتة».. «كيباب وكوفتا».. «خلاص، كيباب وكوفتا كيباب وكوفتا، خليكى على راحتك.. لكننى سآخذك اليوم إلى مطعم آخر سوف يعجبك الجو فيه كثيرًا».

كنت - منذ ١٥ سنة - حين تحتاج ظروف العمل إلى أن أسهر ليلة كل أسبوع فى مطبعة دار الهلال لمتابعة مونتاج مجلة الإذاعة والتليفزيون قبل دخولها إلى المطبعة، كنا شلة المجلة فى وسط السهرة نذهب كلنا لنتعشى كباب وكفتة من عربية يد فى حارة مبلطة صغيرة جدًّا فى مواجهة مسجد السيدة زينب.. فنقعد على دكة خشبية لا تعرف لونها الأصلى كان إيه، ومائدة خشبية لم يكن لها لون أصلى فى يوم من الأيام.. ومع ذلك فقد كانت هذه العشوة الظريفة والقعدة الأظرف وشلة شبان المجلة - كنا

شبانًا من ١٥ سنة - تساوى تعب وإرهاق الأسبوع.. وكان كل منا يتكلف ليس أكثر من ٣٠ أو٤٠ قرشا..

ومنذ سنتين هفت هذه القعدة على بالى.. تذكرتها ذات ليلة وأنا سهران فى بيتى مع عدد من الأصدقاء، فنزلنا كلنا لنذهب لنتعشى فى نفس المكان. لكننى وجدت المسألة قد اختلفت تمامًا وربنا فتح - بشدة - على كبابجى عربية اليد فتحول - فى نفس المكان بالضبط - إلى مطعم كبير أنيق فى بساطة وشديد النظافة إلى حد يثير الانتباه، ورائحة الشواء تملأ الحارة كلها وتفتح النفس أكثر مما هى مفتوحة.. والسفرجية بجلاليبهم البيضاء الناصعة يروحون ويجيئون بين الموائد بسرعة ونشاط، والابتسامة تملأ وجوههم، وسرعة تلبية الطلبات.. تطلب أى شىء فيكون عندك حالاً.. والماء المثلج والأكواب التى تبرق من النظافة، والفوط النظيفة، والموائد البيضاء النظيفة. وكل شىء يجعلك تأكل بنفس وتشبع بنفس، وتقوم هانئًا راضيًا سعيدًا.. ورغم أننى دفعت ليلتها ١٠٠ ضعف بالضبط ما كنت أدفعه من ١٥ سنة، إلا أننى كنت سعيدًا لأن الجو والقعدة كانت تساوى ذلك وأكثر، كما أن الأسعار فى كل الدنيا شاطت وولعت..

تذكرت هذا المطعم الظريف وأنا و «مارجريت» خارجين من المتحف الإسلامى، فقلت فى نفسى: «هو ده.. قطعًا حاننبسط جدًّا من الجو كله على بعضه».

وذهبنا.. فباظ اليوم كله.

جغرافيًا، الموقع هو نفس الموقع، وموجود مطعم فعلاً فى نفس المكان، لكنه شىء مختلف تمامًا تمامًا تمامًا.. من أول لحظة تشعر بأن كل شىء قد

تغير -فى خلال سنتين فقط- الموائد لم تمتد إليها يد بأى نوع من التنظيف منذ أن وضعت فى هذا المكان، وليس عليها مفارش.. المكان كله على بعضه أصبح معتما مقبضًا وأرضيته قذرة، وجدرانه قذرة، وكأن الزبائن يمسحون أيديهم فيها، لأنه لم تعد هناك فوط على الموائد.. السفرجية يرتدون جلاليب قذرة لا تستطيع أن تكتشف لونها الأصلى وكأنهم يشتغلون فى ورشة حدادة وليس فى مطعم.. السفرجى الذى أحضر لنا ما طلبناه يبدو أنه كان قد أصيب فى حادث ما منذ أكثر من شهر، وذراعه متعور ومربوط بشاش قذر ملئ بآثار دم أحمر قديم قاتم، ويحمل كل الأطباق على ذراعه السليم، ويضعها أمامك على المائدة بذراعه المتعور، وكأنه يضع شاشه وقطنه المليء بالدم فى طبقك.. وشكل التعامل الغريب جدًّا الذى يتعامل به السفرجية معك وكأنهم يكرهون الزبون ويحتقرونه.. ووضع السفرجى طبقى الكباب - طبقين صاج - أمامنا وتركنا ومشى.. فناديته وسألته: «مفيش سلطات»!؟ فذهب إلى مائدة قريبة منا كان زباينها قد أكلوا وانصرفوا فأخذ من على المائدة طبقًا (كان فيه) سلطة خضراء ولم يبق فيه الآن إلا أقل من نصفه!! طلبت منه ماء فذهب وأخذ شفشقًا «ألمونيوم» من أمام زبائن لسه قاعدين بياكلوا فعلاً !!

حين خرجنا من المطعم قالت لى «مارجريت»: هل قلت لى إنك كنت تأكل فى هذا المكان منذ ١٥ سنة»!؟ قلت: «آه» قالت: «الآن عرفت السبب الذى جعلك تهاجر من مصر إلى إنجلترا»!!

الفصل الخامس

جريمة فى الحمام!

كان اليوم هو اليوم السيىء بالنسبة لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. كنا قد تعودنا أن تستيقظ هى بدرى جدًّا قبلنا، وتأخذ حمامها الصباحى، وتتزوق وتتزين، وتعد الإفطار بنفسها وعلى مزاجها هى واختيارها، ثم تجىء لتوقظنا - قبل السابعة صباحًا - بصينية الشاى والإفطار..

اليوم حين فتحت عيناى فى الصباح وحدى دون أن أجد «مارجريت» أمامى جالسة على حافة الفراش كعادتها وصينية الإفطار بيننا، ونظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف صباحًا، قلقت على «مارجريت»، فأيقظت ابنة أختى وذهبنا إلى غرفة «مارجريت» فوجدناها جالسة فى فراشها وعينيها - الخضراوين الجميلتين - مليئتين بالدموع.. «صباح الخير يامارجريت».. ماذا حدث؟ هل حلمت حلمًا مفزعًا!؟.. قالت من بين دموعها: «أى خير هذا الذى تتحدث عنه.. أنا لم أنم لحظة واحدة طول الليل.. هذه الكلاب التى تنبح طول الليل فى الشارع تحت العمارة،

أليس لها أصحاب !؟ هل هى مطلقة فى الشوارع هكذا طول الليل لكى تحرم سكان الحى من النوم؟ ومع أن عمارتكم إلى جوار قسم البوليس مباشرة، فإذا لم يكن السكان يستطيعون شيئًا تجاه هذه الكلاب، أفلا يستطيع البوليس شيئًا !؟ فى إنجلترا - كما أظنك تعرف - لا يوجد كلب بدون صاحب، ومع ذلك فهناك فرق خاصة تجوب الشوارع طوال اليوم، فإذا وجدت كلبًا وحده وليس معه أحد، أو ليس مع أحد - وذلك شىء نادر جدًا جدًّا - فهى تأخذه إلى حظيرة الكلاب فى منطقة (باترسى) حيث تحتفظ به لمدة أسبوع واحد، أسبوع واحد فقط لا غير، فإذا لم يطالب به أحد، أولم يتقدم لشرائه أحد، فإنه يُعطى حقنة خاصة تميته فى ثوان، ويتم التخلص منه.. وبهذه الطريقة يتم إعدام ١٦٠ ألف كلب فى السنة فى كل أنحاء إنجلترا، مع أننا - الإنجليز - شعب يحب الكلاب جدًّا إلى درجة الهوس.. لكننى هنا فى مصر على كثرة بيوت الأصدقاء التى زرتها معكما لم أجد بيتًا واحدًا يقتنى كلبًا، وكل الكلاب عندكم مطلقة السراح فى الشوارع، تختفى بالنهار وتعقد مؤتمراتها فى الليل، لتنبح طول الليل تحت النوافذ والبلكونات، فى المناطق السكنية وكأنها تنتقم من السكان.. كل ليلة كنت أشعر بها فكنت أضع قطنا فى أذنى ثم أستغرق فى النوم من الإرهاق والتعب والدوران طول اليوم، لكنها الليلة كانت فظيعة ولم ينفع معها لا قطن، ولا تعب، ولا إرهاق.. قطعًا هناك حل ما لهذه المؤتمرات النابحة طوال الليل.. لكننى لو قضيت ليلة أخرى كهذه فسوف أعود إلى إنجلترا فورًا، لكى أكمل نومى هناك» !!

كانت هذه هى «افتتاحية» اليوم.. ثم كان اليوم نفسه شديد الحرارة..

وعدنا من زيارتنا الثانية للأهرامات وأبى الهول لكى نجد المفاجأة رقم ٢ فى انتظارنا: عصابات بوابى العمارات فى القاهرة الآن أصبحت تكون «مافيا» لابتزاز السكان، وإرهابهم بوسائل أصبح كل السكان يعرفونها جيدًا ومع ذلك فهم لا يستطيعون مقاومتها ولا يجدون لها حلا.. أصبح البوابون الآن هم أسياد الموقف - بموافقة وتأييد و «مشاركة» أصحاب العمارات - وهم المتحكمون والقادرون على جعل السكان يرفعون أيديهم مستسلمين ويخرجون محفظة نقودهم ويسلمونها للبوابين صاغرين.

عدنا إلى البيت عصرًا بعد ليلة لم تنم فيها «مارجريت» من نباح الكلاب، ويوم فى صحراء الهرم فى عز الحر، لكى نجد المياه مقطوعة عن جناح العمارة الذى فيه شقتى و ٢٢ شقة أخرى.. وإعادة المياه إلى الشقق يتطلب سباكًا، وإحضار السباك يتطلب أن تدفع كل شقة ٨ جنيهات الآن حالاً وفورًا، وإلا فسوف تقضى بقية اليوم والليلة وصباح غد - فى عز الحر هكذا - بدون مياه فى الشقق !! ويلم السادة البوابون ٢٠٠ جنيه فى خبطة واحدة من الـ ٢٣ شقة بحجة المياه المقطوعة والسباك.. وندفع صاغرين.. ويتكرر ذلك مع كل جناح من جناحى العمارة مرة كل أسبوعين أو ثلاثة على الأقل.. وليس هناك جهة ما رسمية فى البلد يلجأ السكان إليها من عسف وإرهاب وابتزاز البوابين ومن ورائهم أصحاب العمارات.

وأدفع صاغرًا فعندى ضيفة أجنبية لا أريد أن ننفضح أمامها، ويدفع ٢٢ ساكنًا آخرين صاغرين.. ومع ذلك فلا تعود المياه قبل السابعة مساء، حين يتم التحصيل من السكان المغلوبين على أمرهم، فيفتح السادة

البوابون المحبس الذى كانوا قد قفلوه.. هكذا !!

ثم كانت ثالثة الأثافى.. فليلة كاملة لم تنم فيها «مارجريت» - التى تنام من العاشرة مساء عادة - ويوم فى صحراء الهرم فى عز الحر، ومياه مقطوعة لعدة ساعات بعد العودة إلى البيت، ثم: ضربة شمس عادت بها من صحراء الهرم جعلتها تفرغ كل ما فى معدتها عدة مرات، وترقد سطيحة فى الفراش وهى لا تقوى حتى على البكاء، وتعتقد أنها سوف تموت فى مصر الآن حالاً وتدفن فى مقابر الصدقة، وهى مقابر مؤكد لا تتوفر فيها «الشروط الصحية» الكافية !!

واحتسست أنا و «ثناء» ولم نعرف ماذا نفعل.. فكلانا لم يمر بتجربة كهذه من قبل.. فاستنجدنا بجارتينا فى الطابق العاشر: «إيلين» و «حياة».. اللتين صعدتا على الفور.. وكانت المياه قد عادت فأخذت «حياة» مارجريت إلى الحمام فى دش رائع؛ وعادت بها إلى الفراش لتجلس إلى جانبها تهدهدها وتلاغيها وتدلعها حتى خرجت «إيلين» من المطبخ وهى تحمل صينية عليها فرخة مسلوقة فى شوربة لسان العصفور.. وجلستا حول «مارجريت» فى الفراش تفصصان لها الفرخة وتطعمانها بأيديهما فى فمها كالأطفال الظغنين المرضى، حتى لمعت الدموع فى عينيها - الخضراوين الجميلتين - وقالت وهى تشرق بدموعها وبشوربة لسان العصفور: «مرة أخرى هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. العلاقات الأسرية عندنا مقطوعة تمامًا.. وقد تتزوج البنت وتنسى أن تخبر والديها بذلك، وقد تهاجر البنت من إنجلترا إلى أستراليا - مثلاً - ولا تتذكر أن

تبلغ أسرتها بذلك إلا بعد سنة أو سنتين، وقد يختفى الولد من بيت أسرته فلا تلاحظ الأسرة ذلك غير بعد عدة شهور.. وإذا كان هكذا شكل علاقة الأسرة ببعضها عندنا، فإن شكل الصداقة قد فقد معناه أصلا.. ليس هناك الصديق وقت الشدة A FRIEND IN NEED A FRIEND INDEED كما كان المثل الانجليزى يقول زمان.. حتى لقاء الأصدقاء - أو الصديقات - فى بيوت بعضهم البعض أصبح مسألة نادرة الآن تمامًا.. يلتقون فى الـ «پبPUB» أوالمشرب ليشربا كأسا أو كأسين ثم قد لا يلتقيان مرة أخرى بقية الأسبوع، وإذا اختفى أواختفت واحدة من شلة الصديقات. ولم تذهب إلى الـ«پب PUB» فى الموعد الأسبوعى، فلن يشغل واحد من بقية الشلة باله بأن يرفع سماعة التليفون ويتصل بها ليعرف ماذا حدث لها.. أصبح كل فرد الآن فى أوربا جزيرة منعزلة لا علاقة لها ببقية الجزر، بل ولا تهمها بقية الجزر عامت أو غرقت.. لذا تكثر حالات الانتحار فى أوروبا الآن بين شبان وشابات صغيرات، لأنهم يشعرون ويشعرن بالوحدة الشديدة وبأن أحدا لا يأبه لهم.. ويترك العواجيز أبواب بيوتهم مفتوحة - أو على الأقل غير مغلقة بالمفتاح - حتى لا يموتوا وحدهم، والشقة مقفولة عليهم فلا يشعر بهم أحد.. وأظنك سمعت عن ممثل السينما الأمريكى الشهير «وليم هولدن» الذى مات فى بيته، ولم يكتشفوا موته غير بعد ٤ أيام حين تخلف عن موعد عمل هام.. ومغنى (الروك آند رول) الشهير «ألفيس بريسلى» الذى مات بنفس الطريقة وعثروا على جثته فى الصباح التالى - بالصدفة - بعد ساعات طويلة من موته».

وعادت تبكى من جديد وهى تقبل «ثناء» و «حياة» و «إيلين» وأنا لأ ..

كان المفروض أن نسافر فى الصباح التالى إلى «أبو سمبل» بالطائرة لنقضى نصف يوم هناك، ثم نعود على نفس الطائرة من «أبو سمبل» إلى أسوان لنقضى فيها يومًا واحدًا تشاهد فيه «مارجريت» معالم أسوان الشهيرة: خزان أسوان، والسد العالى، ومعبد كلابشة، وقبر أغا خان، وجزيرة النباتات، وقبة «سيدى على أبو الهوا» وقبائل البشارية، ونبيت ليلة واحدة فى فندق (نيو كتاراكت)، ثم فى اليوم التالى نستقل الباخرة النيلية. أو الفندق العائم لمدة ٤ أيام و ٤ ليالى بين أسوان وإدفو والأقصر، ونقضى فى الأقصر يومًا واحدًا أيضًا. تشاهد فيه معبد الأقصر ومعبد الكرنك وطريق الكباش، والبحيرة المقدسة، ووادى الملوك ووادى الملكات ومعبد الملكة الشهيرة «حتشبسوت» وقصر الأميرة «عين الحياة». ونبيت ليلة واحدة فى فندق (ونتر بالاس)، ثم نركب القطار من الأقصر إلى القاهرة.. لكى تكون «مارجريت»-كسائحة - قد رأت أهم آثار مصر العليا، واستعملت ٣ وسائل انتقال فى رحلة واحدة: الطائرة والباخرة النيلية والقطار.. وذلك طبعًا غير الفلوكة فى أسوان وعربات الحنطور فى الأقصر، والمعدية بين شرق النيل وغربه فى الأقصر أيضًا..

كل ذلك ألغى الآن.. «مارجريت» بعد أن جربت ضربة الشمس فى القاهرة فى عز يونيو، رفضت تمامًا أن تذهب جنوبًا ولا خطوة واحدة: «وكمان عايز توديني أبو سمبل على بعد أكثر من ١٠٠٠ ميل جنوبًا من

القاهرة !؟ إذا كانت دماغي قد ساحت من شمس القاهرة فماذا سيحدث لى فى أبو سمبل وأسوان والأقصر !؟ أنت تريد أن تتخلص منى قطعًا.. لن أتحرك من هنا خطوة واحدة جنوبًا، لكن إذا كنت تريد أن تأخذنى شمالاً إلى الشاطئ وإلى البحر الأبيض فسأكون جاهزة بعد ١٠ دقائق»!!

– اصبرى قليلاً ياسيدتى الجميلة، لم يأت دور الشاطئ بعد.. فغدا هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، وقد دعانا بعض الأصدقاء لنقضى أول يوم العيد معهم لكى ترى شكل وتقاليد الاحتفال بالعيد على الطريقة الإسلامية المصرية.

كانت ضربة الشمس التى أصابت «مارجريت» أمس أهون كثيرًا مما أصابها اليوم.. كنا مدعوين اليوم – أول أيام عيد الأضحى – للإفطار عند أسرة مصرية صديقة.. وطلبوا منا أن نكون عندهم قبل السابعة صباحًا، لكى ترى «مارجريت» مراسم الاحتفال بالعيد من بدايتها.. والذى دار بذهنى أنا شخصيًا أن هذه «المراسم» هى صلاة العيد والتكبيرات و (الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرًا، ربنا ولك الحمد) ثم الإفطار بالفتة بالخل والتوم واللحم المسلوق والمرق والممبار إلى آخر إفطار عيد الأضحى الذى كنت قد افتقدت طعمه – ولا أقول نسيته – بعد ١٦ عيد أضحى لم أشهدها فى مصر منذ تركتها إلى أمريكا ثم انجلترا.

لكن الذى لم أكن أتصوره هو أن (هذه المراسم من البداية) – كما قالوا لى – سوف تؤدى إلى كارثة .. وحين جاءت مضيفتنا ربة البيت لكى تأخذ «مارجريت» من ذراعها تدعوها للذهاب معها إلى الحمام، لم

أفطن إلى سبب هذه الدعوة إلا بعد أن كان الوقت قد فات فعلاً.. وأنا أقفز من مقعدى جاريًا إلى الحمام لكى أحول دون وقوع الكارثة، كانت الكارثة قد وقعت فعلاً، وارتفع صراخ «مارجريت» الهيستيرى يملأ الشقة كلها، والعمارة كلها، بفزع شديد وقد امتقع وجهها من الهلع والرعب وهى تشد شعرها الأحمر بعنف، وأنا أحاول أن أسحبها بعيدًا عن الحمام، حتى سقطت من طولها مغشيًا عليها.

وذعر الجزار وفر هاربًا وقد ظن أنه ربما لضعف بصره قد ذبح «شخصا» آخر غير الخروف.. وحين فتحت «مارجريت» عينيها صاحت: «هل قبضتم عليه؟».. «قبضنا على مين يا مارجريت؟».. «على ذلك المجرم الذى قتل ذلك الحمل المسكين».. «ليس مجرمًا إنه جزار، وليس حملاً إنه خروف».. وشرحت لها بهدوء وبالراحة فكرة التضحية بخروف العيد و: «وأنت لست نباتية وتأكلين اللحم.. فهل تظنين أن اللحم الذى تأكلينه لحما صناعيًا مثلاً»؟! لكنها انتطرت واقفة وأصرت على أن ننصرف فورًا من عند هؤلاء الناس الهمج البرابرة المتوحشين الذين يدعوننا لنشاهد قتل خروف مسكين مهما كانت الأسباب.. «وكيف تظنينهم يذبحون الخرفان فى أوروبا؟ هل يطلقون عليها الرصاص أو يعدمونها بالكرسى الكهربائى»؟.. «لكنها لا تذبح هكذا.. إنها تذبح بآلات خاصة تجعلها لا تشعر بالألم، ولا أراها وهى تذبح فى حمام شقة هكذا وكأنكم ترتكبون جريمة قتل.. كيف تطلبون من أطفالكم أن يكونوا رقيقى المشاعر والأحاسيس وهم يشهدون هذا المنظر البشع مرة على الأقل كل عام!؟ هل هؤلاء الأطفال سيرسمون فنًا أو يكتبون شعرا

أو يؤلفون موسيقى فى يوم من الأيام» !؟

أربعة أيام بعدها و«مارجريت» لا تأكل اللحم وقد فقدت شهيتها أصلاً، وتشيح بوجهها إذا مررنا على محل جزار، وتلمع الدموع فى عينيها - الخضراوين الجميلتين - إذا مررنا بخروف «لسه صاحى» وتربت على رأسه بحنان وحزن كأنما تواسيه فى مصابه الفاجع.. حتى تصورت أنا أنها سوف تصبح نباتية من الآن إلى آخر يوم فى حياتها.

بعد ٤ أيام كنا فى سيدنا الحسين ليلا، ومررنا على مطعم تفوح منه رائحة الكباب فتملأ المنطقة كلها وتخترق النغاشيش الجوعى الهفتانة.. فنظرت «مارجريت» إلى المطعم طويلاً ثم دون أن تدير وجهها إلى ناحيتى سألتنى بصوت خافت: «حسين.. تفتكر الرستوان ده عنده كوفتا» !؟.

وأكلت وحدها طن كفتة، على روح شهداء عيد الأضحى المبارك!

انتهزت فرصة أن «مارجريت قد عادت إليها ابتسامتها أخيرًا، فرأيت أن أريها شيئًا آخر جديدًا عليها تمامًا لاتراه فى أوروبا كلها.. فقد ظننت أن منطقة الأزهر وسيدنا الحسين، تسهر طول الليل لأسباب سياحية فقط.. ومنذ أن تعرفنا ببعض من ٨ سنوات وهى تقول لى دائما: «أنت إنسان غريب وشاذ.. هل تظن أن هناك شخصًا آخر غيرك ممكن أن يكتفى بنوم ٣ أو ٤ ساعات فى اليوم كله!! أنت مجنون وتنتحر بذلك، وتظن أنك تستمتع بيومك أكثر».. «يا سيدتى الجميلة أنت تنامين ٨ ساعات فى اليوم على الأقل، ومع ذلك فأنا أكبر منك بخمس سنوات ولم أمت بعد، وصحتى زى الحديد.. ولست أنا وحدى هكذا، لكن المصريين كلهم ناس (سهيرة)

يعشقون السهر للصبح.. ناس يعشقون الحياة ويعيشونها».. ولم تصدقنى حتى جاءت إلى مصر. ورأت بعينيها - الخضراوين الجميلتين - الأصدقاء يسهرون عندى ونسهر عندهم حتى الثالثة والرابعة صباحا.. ثم شهدت - وسهرت - فى الأزهر وسيدنا الحسين عدة مرات.. ولما كنت فى كل مرة نفكر فيها فى السهر فى القاهرة القديمة آخذها إلى سيدنا الحسين، فقد ظنت هى أنه الحى الوحيد الذى يسهر طول الليل فى القاهرة..

الليلة بعد أن سهرنا فى سيدنا الحسين، حتى قرب الثانية صباحًا قلت لها: «ياللابينا نذهب إلى مكان آخر».. وذهبنا إلى السيدة زينب لكى نشرب عصير قصب من محل هناك.. لم يعجبها عصير القصب لأن حلاوته زاعقة، فشربت أنا الكوبين وشربت هى عصير برتقال.. ثم مشينا من جوار المدرسة السنية إلى حى الناصرية.. وانبهرت «مارجريت» للمنظر الخارجى لـ (حمام السوق) الذى لازال باقيًا حتى الآن.. وشرحت لها فكرته فقالت إنها نفس الفكرة التى تطورت لتصبح الـ (ساونا) الآن.. وانبهرت مرة أخرى حين رأت كل محلات ودكاكين الحى فاتحة طول الليل هكذا - الثانية بعد منتصف الليل - والمقاهى مليئة بالناس طول الليل هكذا. والصياح المنغم للجرسون البلدى ذى الجلابية والطاقية والمريلة وصينية الطلبات على يد واحدة وفيها عشرات الأكواب من كل صنف ولون: قهوة، شاى، ينسون، حلبة، جنزبيل، كراوية قرفة.. والأطفال يلعبون الكرة الشراب فى الشوارع فى ذلك الوقت المتأخر من الليل، والستات والبنات رايحين جايين فى الشوارع فى أمان واطمئنان تمامًا، بعكس الفكرة التى كانت عند «مارجريت» من أن المرأة المصرية

لا تخرج من باب بيتها بعد غروب الشمس، حتى لا يختطفها أحد أو يعتدى عليها أحد.. ومحلات الفكهانية والفاكهة المرصوصة تلالاً تضوى من النظافة تحت أضواء الكلوبات، وعربات باعة التين الشوكى وعربات البطاطة المشوية، وعربات الكبدة والكباب والكشرى بشكلها المميز، ثم عربات البليلة وحمص الشام، والبخار يتصاعد منها جميعا.. وتختلط الروائح الشهية لتداعب النغاشيش مرة أخرى لكن «مارجريت» كانت قد امتلأت بالكفتة و - تانى - العين بصيرة والمعدة الأوروبية صغيرة لا تحتمل الرمرمة التى تستوعبها المعدة المصرية المصفحة التى ممكن أن تتعشى ٣ مرات فى ليلة واحدة إذا كانت المسألة تستاهل!!

وفى ميدان عابدين أريتها قصر عابدين الذى كان «فاروق» آخر ملوك مصر يحكم منه، وأريتها البيت الذى عشت فيه أنا فى نفس الميدان لمدة سنتين ونصف فى أوائل الستينات.. ودهشت حين رأت الشقة التى كنت أسكنها مضاءة، وسألتنى: «هو فيه حد آخر سكن فى الشقة دى بعدك»!؟ فقلت مندهشًا لدهشتها: «ياسلام.. أمال يعنى حايعملوها متحف؟!».. وأكملنا المشوار فى شارع محمد فريد أو عماد الدين لكى نصل إلى منطقة المسارح، لترى المسارح وهى تنهى عروضها والجمهور يخرج منها ليملأ الشوارع فى ذلك الوقت المتأخر جدًّا من الليل أو المبكر جدًّا من الصباح، بينما كل المسارح ودور السينما فى لندن - وفى كل أوروبا - تنهى عروضها فى العاشرة والنصف مساء على الأكثر، حتى يلحق روادها بوسائل المواصلات العامة - الأندرجراوند - والاوتوبيسات - ليعودوا إلى بيوتهم فى وقت مناسب، لأن اليوم التالى

يوم عمل، وعليهم أن يكونوا فى مكاتبهم قبل التاسعة صباحًا.

لأنها ولدت وعاشت طفولتها وصباها فى ضاحية (تشينجفورد) فى أقصى شمال مدينة لندن، حيث هى أقرب إلى الريف منها إلى المدينة، ثم عاشت بعد ذلك ١١ سنة فى أستراليا على حافة مدينة (ملبورن)، المدينة أمامها والريف وراءها.. لذا فقد كانت «مارجريت» مهتمة جدًّا وشغوفة جدًّا بأن ترى الريف المصرى.. ولما وعدتها بأن أرتب لها زيارة لمدينة بلبيس التى عشت طفولتى فيها حتى سن الثامنة ثم لم أرها مرة أخرى إلا بعد ذلك بثلاثين سنة، قالت لى: «أريد أن أرى البيت الذى نشأت فيه، ومدرسة الأطفال والمدرسة الابتدائية اللتين كنت طفلاً وولدًا صغيرًا بهما.. لكننى أيضًا أريد أن أرى الريف نفسه وليست مدينة بلبيس فقط»..

لى أصدقاء كثيرون فى قرية قريبة من بلبيس منذ دعانى المرحوم المهندس «شكرى أيوب» محافظ الشرقية الأسبق مرات عديدة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) على بعد ٣ كيلو مترات من بلبيس، وكنت فى كل زيارة ألتقى بشبان وشابات كفر أيوب فى قعدات دردشة حول الصحافة والفن والأدب والسفر إلى الخارج والحياة فى أوروبا.. «عادل عبد المقصود» الطالب بكلية اللغات والترجمة فى جامعة الأزهر هو سفير كفر أيوب عندى وسفيرى عندهم، ينقل لى أخبارهم وينقل لهم أخبارى بين كل لقاءين.. رتب «عادل» لنا أن نزور مدينة بلبيس لساعة واحدة، ثم نقضى بقية اليوم فى حقول كفر أيوب.

فى الصباح نزلنا من البيت عندى شلة من الأصدقاء وبنات الأسرة: مارجريت وأنا، وعزة، وثناء، وسيد، ومعنا دليلنا عادل.. «مارجريت»

تتلفت حولها طول الوقت، طول المسافة بين القاهرة وبلبيس – ٥٠ دقيقة – وتسأل عن كل شيء وتستفسر عن كل شيء: «كيف تكون هذه هى دلتا نهر النيل، وفيها كل هذه المناطق الصحراوية!؟ حتى المنطقة التى فى حضن فرعى النيل ليست كلها مزروعة»!!

وصلنا إلى بلبيس.. المعالم التى كنت أعرفها وأتذكرها قد اختلفت تمامًا أو «اختفت» تمامًا.. البيت الذى نشأت فيه هدم وبنيت مكانه عمارة كبيرة.. (روضة أطفال الأمريكان) لم يعد هناك روضة أطفال بهذا الاسم ولم يتذكر أحد مكانها وحين التقينا بواحد من جيلى ومعاصرى وسألناه قال إنه أبدا لم توجد فى مدينة بلبيس روضة أطفال بهذا الاسم!! بعض الناس يصرون على أنه ليس فى العالم دولة اسمها تشيكوسلوفاكيا ماداموا هم لم يسمعوا عنها من قبل.. حتى مدرستى الإبتدائية التى كانت المدرسة الابتدائية الوحيدة فى بلبيس فى ذلك الوقت (مدرسة بلبيس الابتدائية الأميرية) ضاعت فى زحام عشرات المدارس الابتدائية التى تملأ المدينة الصغيرة الآن.. لم أستطع أنا أن أتذكر اسم الشارع الذى كانت فيه المدرسة، ولم يستطع أحد أن يدلنى على أقدم مدرسة فى المدينة.. الشيء الوحيد الذى بقى فى موضعه هو مركز البوليس الذى كان أبى رئيسه.

وخرجنا من بلبيس و «مارجريت» محبطة جدًّا، وأنا أشد منها إحباطا، فقد ضاعت كل معالم وذكريات طفولتى بفعل الزمن الذى لا يبقى شيئًا على حاله.

بعد ٣ دقائق كنا فى كفر أيوب سليمان.. وجولة سريعة فى شوارع القرية التى خرج كل أطفالها يجرون وراءنا يتفرجون على «الست

الخواجاية».. وقد استنتجوا أن «مارجريت» هي «الخواجاية» بيننا، ربما لأن شعرها أحمر، وربما لأنها تتكلم لغة لا يفهمونها!!.. وشاهدت «مارجريت» كل شيء على الطبيعة بدون ترتيب.. يوم عادى من أيام القرية المصرية.. الفلاحات يجلسن أمام أفران الخبيز ورائحة الخبز الفلاحى الشهى تملأ الجو حولهن.. رطنت «مارجريت» شيئًا للفلاحة الجميلة التى تجلس أمام الفرن، لم تفهمه الفلاحة طبعًا، لكنها بكرم شرقاوى أصيل مدت يدها لمارجريت برغيف لسه خارج من الفرن سخن ملهلب.. فراحت «مارجريت» تنقل الرغيف بين راحتيها وهى تصوصو من سخونته، ولم ينبها منه إلا قطمة أو قطمتين لأن «ثناء» و «عزة» خطفتا منها الرغيف، ونال كل واحد من المجموعة كلها نصيبًا من الرغيف الواسع الطرى الساخن الشهى.. ورأت «مارجريت» جملًا يتمشى وحده فى شوارع القرية، ووقف الجمل مستكينا و «مارجريت» ترفع ذراعها إلى أقصاه لكى تلمس بيدها رقبته حتى ألتقط لها صورة تذكارية معه.. وما أن التقطت الصورة وربتت «مارجريت» بيدها على رقبته حتى فهم الجمل الذكى أن مهمته قد انتهت، فعاد يتمشى وحده من جديد.. لكنها حين رأت جاموسة سوداء ضخمة مربوطة فى وتد وهى تتناول غداءها واقتربت مارجريت منها فرفعت الجاموسة رأسها الكبير ونظرت إلى «مارجريت» بعينيها السوداوين الواسعتين الجميلتين وخارت بما يشبه الغضب وكأنها تخشى أن تشاركها «مارجريت» غداءها، فاكتفت «مارجريت» بأن لوحت لها بيدها من بعيد وهى تقول لها: «هاللو».

وحين دخلنا فى الحقول والممرات الضيقة بين المزروعات، صاحت

«مارجريت» كطفلة صغيرة جذلة، وهى ترى حقول الذرة ثم القطن فالأرز مترامية على امتداد البصر وليست هناك أية مبانى فى طريقها.. هذا هو الريف ببساطته وسحره واتساعه..

ووصلنا إلى ماسورة ضخمة تعمل بـ (وابور) لسحب المياه الجوفية من باطن الأرض وتتدفق المياه بقوة وشدة من الماسورة الكبيرة لكى تصب فى قناة أو مجرى صغيرة تأخذ المياه المتدفقة لكى تروى بها الحقول.. وحاولت «ثناء» بحجمها الصغير جدًّا الرشيق جدًّا، المحندق جدًّا أن تستند إلى الماسورة لكى تأخذ حفنة ماء بكفها إلى فمها، كما كنا نفعل ونحن أطفال حين نشرب من حنفيات المدرسة، لكن قوة دفع الماء الخارج من الماسورة الضخمة خبط «ثناء» فى وجهها ففقدت توازنها وسقطت بجسمها كله فى القناة الصغيرة التى تصب فيها الماسورة.. وانتشلناها بسرعة قبل أن يجرفها التيار بعيدًا عنا وحد يلاقيها فيأخذها.. وخرجت وقد ابتل تمامًا (السلوبيت) البمبى الذى كانت ترتديه، فالتصق بجسدها كله، فذكرتنى بمنظر الممثلة الايطالية «سيلفانا مانجانو» فى فيلم (مرارة الأرز) الذى شهدناه ١٥ مرة ونحن مراهقين ولازلنا نذكره حتى الآن.. وقطعًا شبان كفر أيوب الذين كانوا معنا سيظلون بقية عمرهم يتذكرون شكل «ثناء» و (السيلوبيت) المبتل ملتصق بجسدها.. لكن ضحكة «ثناء» العريضة المرحة المهياصة لم تختف من وجهها لحظة واحدة حتى وهى موشكة على الغرق فى (شبر ترعة).

ورأت مارجريت حمارًا أبيض صغيرًا يقف هادئًا على مقربة منا ينظر إلى ناحيتنا فى وداعة وكأنه يتفرج علينا.. فذهبت إليه تربت على رأسه

بود وحنان.. وفى اللحظة التالية كانت قد قفزت فوق ظهره والحمار مستسلم – ولا شك أنه سعيد – وقامت به «مارجريت» بتمشية رايحة جاية فى الغيط عدة مرات، وهى سعيدة جدا بأنها تركب حمارًا لأول مرة فى حياتها.. وسألتنى وهى تنزل من فوق ظهره: «تفتكر الحمار اللى زى ده يساوى كام بالاسترلينى».

وتفسحنا فى الحقول فترة طويلة، والشلة تزداد وتكبر طول الوقت، حتى حان موعد الغداء، فوجدنا تحت شجرة وارفة ظليلة طبلية كبيرة تحتها حصير مفروش.. وأكلت «مارجريت» غداء مختلفًا تمامًا فى جو مختلف تمامًا: البتاو الفلاحى الطرى الكبير + فطير مشلتت + قشطة رايبة + جبنة قريش + مش أو جبنة قديمة، كان واضحًا أنها مش قديمة أوى، فلم يكن فيها «أشياء صاحية» ممكن أن تثير فزع «خواجاية» مش واخدة على وجود هذه «الأشياء المتحركة» فى صنف ما من أصناف الأكل.

وبعد الغداء جاء الأولاد بحبل من الليف ربطوه بين شجرتين متقاربتين ليكون مرجيحة فلاحى ظريفة جدا، اتسعت لها عينا «مارجريت» – الخضراوان الجميلتان – من الدهشة،وشهقت وكادت أن يغمى عليها وهى ترى البنتين المصريتين «ثناء» و«عزة» وهما تجلسان على مخدة صغيرة وضعت فى وسط هذا الحبل الليف لتتمرجحا بخفة ورشاقة.. وحين عرضت على «مارجريت» أن تتمرجح هى أيضًا رجعت خطوتين إلى الوراء، وقالت: «أبدا.. هذا الحبل لن يتحمل ثقل جسدى» قلت: «لقد تحمل ثناء» قلت: «إن ثناء فراشة رشيقة.. إننى أستطيع أن أحملها

بإصبعين فقط» قلت: «لقد تحمل عزة» قالت: «وعزة عصفورة مزقلطة ليس إلا» قلت لها متحديا: «وما رأيك فيّ أنا»؟ قالت بتحد: «أراهنك على كل ما فى جيبى أن الشجرتين سوف تنخلعان من مكانهما بمجرد أن تجلس أنت على هذه المرجيحة الحبل»..فجلست وتمرجحت وعليت لفوق ونزلت لتحت، لكن لم يكن فى جيب «مارجريت» إلا منديل، وكلينكس كمان.. لكنها كانت قد تشجعت، فوضعت نفسها فى وسط المرجيحة وهى تنظر إلينا محذرة بنظرة صارمة جادة وكأنها تركب صاروخًا سوف ينطلق بها إلى الفضاء: «لا أحد يقترب منى.. دعونى أتمرجح وحدى دون أن يزقنى أحد».. وبدأت تقلد ما رأت «ثناء» و «عزة» تفعلانه، فدفعت بقدمها فى الارض فكادت أن تنكفىء على وجهها، ودفعت بقدمها فى الأرض مرة أخرى فكادت ان تنقلب على ظهرها.. فرفعت قدميها من على الأرض قليلاً وطلبت من «ثناء» - أخفنا حجها وأرشقنا وأكثرنا أدبًا وتهذيبًا - أن تدفعها دفعة صغيرة: «دفعة صغيرة فقط ياثناء.. فاهمة؟».. ودفعتها «ثناء» دفعة صغيرة فتأرجحت «مارجريت» فى الهواء قليلاً،ثم دفعة صغيرة أخرى، ودفعة صغيرة ثالثة و«مارجريت» تضحك سعيدة فقد بدأت تتمرجح فعلاً.. لكن دفعة «ثناء» التالية أطاحت بمارجريت إلى أعلى، وهى تصرخ فزعا حتى ظننا أنها سوف تسقط من المرجيحة فى القرية المجاورة.. لكنها عادت «من فوق» لكى تتلقاها «ثناء» بدفعة ثانية قوية.. و «مارجريت» تصرخ و «ثناء» تدفع، «مارجريت» تصرخ و «ثناء» تدفع، حتى بدأت «مارجريت» تطمئن وتنبسط وتنسجم من المرجيحة الحبل، فبدأ صوت ضحكاتها «الانجليزية»

يجلجل فى الفضاء حتى خشينا أن يأتى سكان القرى المجاورة على صوت ضحكاتها.. حتى اكتفت وشبعت مرجحة فصاحت بى وهى تومئ برأسها ناحية «ثناء» : «حسين.. إنزع هذه الفيشة الصغيرة اللعينة من الكهرباء.. كفاية كده».. ونزلت من على المرجيحة لكى تهجم على «ثناء» و.. تأخذها فى حضنها وتقبلها.. فندمت أنا على أننى لم أتطوع لمرجحتها.. لكننى على أى حال قررت أننى فى المرة التالية سوف أطلب من «ثناء» أن تمرجحنى : «دفعة صغيرة ياثناء.. فاهمة»؟ ثم أنزل من على المرجيحة لأشكرها !!

وبعد الغداء والمرجحة ذهبت المجموعة كلها لصيد العصافير ببندقية الرش التى أحضرها «سيد محيى الدين» معه لكنه نسى أن يحضر معها «الرش».. بينما تمددت أنا و «مارجريت» على حصيرة فى وسط الغيط فى منطقة ظليلة فى غفوة نحو نصف ساعة، حتى عادت المجموعة إلينا مرة أخرى بعد أن فشلوا فى خداع العصافير وتخويفها بالبندقية الفاضية لكى تستسلم دون قتال.. فجاءوا ليوقظونا من غفوة العصارى الظريفة لكى نذهب إلى النادى الثقافى فى القرية، حيث ينتظرنا عدد كبير من شبان وبنات كفر أيوب الذين كنت قد تعرفت بهم وبهن فى زياراتى السابقة، لكى يحتفوا بنا وبمارجريت.

وقرأ الطالب «محمد منصور» آيات من القرآن الكريم ليفتتح اللقاء.. «مارجريت» تطرب لشيئين باللغة العربية لا تفهم منهما حرفا، لكنها تنتشى لهما كثيرًا : القرآن الكريم وصوت أم كلثوم!!.. ثم ألقى «عادل عبد المقصود» كلمة باللغة الإنجليزية - وهو طالب متفوق فى كلية

اللغات والترجمة ينجح مرة كل ٣ سنوات - رحب فيها بمارجريت بلغة إنجليزية سليمة تمامًا حتى أن «مارجريت» قد فهمت منها ٤ أو ٥ كلمات.. وقال فى كلمته يصف «مارجريت» بأنها THE BEAST LADY وهو يقصد THE BEST LADY فقلب المعنى من (أحسن سيدة) إلى (السيدة المتوحشة)!! ولم تضحك «مارجريت» لأنها ظنت أن «عادل» يعرفها جيدًا.. وردت «مارجريت» على كلمة «عادل» وعلى ترحيب شبان وبنات القرية، بأنها تشعر الآن أن لها أسرة كبيرة وقرية تنتمى إليها فى مصر ويسعدها أن تعود إليها مرة أخرى ومرات.

ووجه إليها البنات والشبان أسئلة عديدة كانت معظمها عن انطباعاتها عن زيارتها لمصر حتى الآن، وعن الحياة الإنجليزية، ثم عن الفن والرسم باعتبارها فنانة تشكيلية، وأستاذة فى كلية الفنون الجميلة.. وعرض عليها ٣ من شباب القرية: محمد سليمان، وقدرى أنور، وعبد العزيز منصور، رسوماتهم التى أثارت دهشتها، وقالت إن مستواهم الفنى لا يقل عن مستوى تلامذتها فى كلية (سانت مارتن) للفنون الجميلة فى (تشيرنج كروس) فى لندن.. وأن كل واحد من الثلاثة أفضل من الآخر ولو استمروا فى الرسم فسوف يكونون فنانين ممتازين فعلاً فى المستقبل القريب، وسوف يموتون جوعًا لو تفرغوا للفن، لأن الفن الجيد فى أى مكان فى العالم لا يكفى صاحبه لأن يأكل ٣ وجبات فى اليوم، ثم تباع لوحاته بملايين الجنيهات والدولارات بعد أن يكون هو قد مات من الجوع و «شبع» موتًا!!

ومن النادى الثقافى خرجنا فى جولة ليلية فى حوارى القرية الضيقة،

أشبه بمظاهرة.. وظل عددنا يتزايد مع كل خطوة بانضمام ناس جدد، حتى أصبحت القرية كلها تسير فى المظاهرة الترحيبية.. وذهبنا لكى نشهد (ليلة الحنة) لعروس من القرية، سوف تتزوج فى اليوم التالى - الخميس - وصعدت «مارجريت» و«ثناء» و«عزة» ومعهن من بنات القرية «سهير مسعود» و«سماح منصور» لكى يباركن للعروس «إيمان» فى غرفتها.. وأخذت أم العروس فستان الفرح لكى تفرجه لمارجريت، لأن العروس لم تلبسه بعد.. سوف تلبسه فى الغد..

وظلت هذه المظاهرة الصاخبة من شبان وبنات وأطفال القرية، تمشى فى ركابنا حتى ركبنا السيارة مرة أخرى قرب العاشرة ليلاً لنعود إلى القاهرة.. فبكت الصغيرة «سامية» - ١٠ سنوات - التى كانت متعلقة بذراعى ومتأبطانى طول اليوم، بكت وهى تقول لى من بين دموعها: «أنا حبيتكم خالص واتعلقت بيكم خالص، أعمل إيه دلوقتى وانتم سايبينى وماشيين»!! فردت عليها «مارجريت» بالجملة التى كانت قد سمعتها من «سماح أنور» ولم تفهمها وقتها، ثم فهمتها فيما بعد وحفظتها كما هى باللغة العربية: «اكتبى لأمينة السعيد»!

الفصل السادس

حين كان إيجار البيت في مصر.. شلن !!

نبهت على مارجريت أمس ليلًا بألا تعد الإفطار اليوم صباحًا لأننى سوف آخذها للإفطار خارج البيت.. كنت أريدها أن تتناول الإفطار فى معطم التابعى للفول والطعمية، باعتبار أنه أحد أشهر معالم مصر «الغذائية»..زمان كان ممكنا أن تدخل عند التابعى فتفطر فول وطعمية وسلطة ٣ أصناف وتشبع وتملأ بطنك، وتدفع ١٠قروش وأنت خارج.. لكن لأنه لا شيء بقى على حاله فى مصر وكل الناس فى مصر الآن تبتكر كل طريقة ممكنة لابتزازك ولكى تضع يدها فى جيبك لتكبش منه أكثر فلوس ممكنة وتطلع تجرى، فقد اختلف النظام عند التابعى أيضًا.. الآن لم تعد تستطيع أن تفطر على مزاجك، فول فقط، أو طعمية فقط، أو تقرر نوع السلطة التى تريدها فتطلبها: سلطة خضراء، سلطة طحينة، بابا غنوج أو طرشى أو ليمون معصفر.. الآن: ذلك كله + بدنجان مقلى + بطاطس محمر + سلطات أخرى، يأتيك فى صينية واحدة متعددة

الخانات مثل صوانى الجيش والمعسكرات تدفع فيها نحو جنيهين.. وليس مهما أنك تريد أن تفطر فول فقط أو طعمية فقط أو أنك لا تحب سلطة البابا غنوج ولا تأكل الطرشى لأسباب صحية، فكل هذه الاصناف أمامك الآن فى الصينية وقد دفعت ثمنها وخلاص.. أكلتها فبالهنا والشفا، ما أكلتهاش أنت حر لكننا قبضنا ثمنها من جيب حضرتك وخلاص.

واندهشت مارجريت جدا من أننا ونحن لسه لم نجلس على مقاعدنا بعد كان الجرسون النشيط يرمى الصينيتين الحافلتين أمامنا ويطلع يجرى، حتى أنها سألتنى باستغراب: «وهم عرفوا إزاى إنت حاتطلب إيه» !؟ فقلت مداريًا: «أصلى اتصلت بهم فى التليفون قبل أن ننزل من البيت» !!

ورغم ذلك فقد أعجبها الجو جدًّا والصخب داخل المطعم والجرسونات النظيفين النشطين رايحين جايين بسرعة ونشاط بين الموائد يرفعون الصوانى الفارغة ويضعون أماكنها صوانى جديدة ويزغدون الزبائن اللى خلصوا علشان يقوموا يمشوا، وزبائن داخلة وزبائن خارجة طول الوقت.. كما انبسطت من شكل الصينية الحاشدة.. ثم ونحن خارجين بعد الإفطار قالت لى: «لكن تعرف.. برضه الكيك اللى بيعمله الرستوران الثانى فى الشارع قدام الناس، طعمه ألذ» !!

السيدة زينب فى طريقنا دائما إلى مشاوير كثيرة.. اليوم كانت فى طريقنا إلى شارع قدرى باشا - وهو ليس قريبى - لكى نزور (متحف أندرسون) أو (بيت الكريدلية) الملاصق تمامًا لمسجد أحمد بن طولون..
وبيت الكريدلية متحف رائع غير عادى يعطى صورة كاملة لشكل

الحياة فى مصر منذ ٥٠٠ سنة.. وقد كان بيتًا مهجورًا لعشرات السنين - لا أدرى لماذا - حتى (اكتشفه) عام ١٩٣٥ الدكتـور «آندرسـون» الطبيب الإنجليزى فى الجيش المصرى.. فطلب من الحكومة المصرية أن تؤجره له، فأجرته له فعلاً بإيجار شهرى قدره ستة قروش مصرية (نحو شلن إنجليزى بعملة ذلك الزمان حين كان الجنيه المصرى أغلى من الجنيه الإنجليـزى ، وبأقـل من بنس واحد بعملة هـذه الأيام!!).. وحـول الدكتور «أندرسون» (بيت الكريدليه) إلى متحف من أجمل المتاحف التى زرتها فى حياتى، وكأنه أعاد الحياة إلى بيت مصرى قديم من ٥٠٠ سنة لازال يعيش حتى الآن.

وكان ذلك هو رأى «مارجريت» أيضًا التى انبهرت إنبهارًا عظيما بكل مارأته فى المتحف حتى كادت أن تبكى من التأثر «الفنى» وهى تتخيل شكل الحياة المصرية اليومية، وشكل الأسرة المصرية التى كانت تعيش فى هذا البيت منذ ٥٠٠ سنة مضت.. فى البيت قاعة كانت تقام فيها الأفراح وحفلات الزفاف.. وعلت الابتسامة شفتينا معًا ونحن نستمع إلى دليلنا يشرح لنا لماذا كان الكرسى المخصص للعروس عريضًا وكبيرًا وواسعًا ومتينا، بينما الكرسى المخصص للعريس صغيرًا وعاديًا، فقال إن جمال العروس فى تلك الأيام كان يقاس بـ «حجمها»، وكلما كانت العروس ثقيلة الوزن كبيرة (المساحة) مترامية الأطراف كان ذلك دليلاً على أنها بنت عز ومن بيت كرم ومتغذية كويس!!

المدهش أننى عشت معظم سنوات طفولتى وصباى و مطلع شبابى حتى تخرجت واشتغلت مهندسًا ثم صحفيا، فى حى السيدة زينب، ومررت على

مسجد ابن طولون وعلى (متحف أندرسون) هذا آلاف المرات دون أن يخطر على بالى مرة واحدة أن أدخله، ثم أدخله الآن مع «مارجريت» لأول مرة فى حياتى بعد أن عزَّلت من السيدة زينب بثلاثين سنة.. وفى تصورى - الآن - أنه يجب على كل مثقف مصرى أو مهتم بالتاريخ المصرى، أو حتى طلبة المدارس والجامعات عمومًا، أن يزوروا هذا البيت لكى يعرفوا كيف كان شكل الحياة فى البيوت المصرية زمان منذ عدة مئات - قريبة - من السنين.

مهما كانت سعادة «مارجريت» وانبهارها بما تشاهده وتراه، فإنها لا تنسى أبدًا موعد الغداء.. وما أن تنظر فى ساعتها حتى أعرف أن موعد الغداء قد حان.. وكان فى ترتيبى فعلاً لليوم أن آخذها للغداء عند أشهر (حاتى) أو كبابجى فى حى السيدة زينب.. وهو مطعم على قدر ذاكرتى - القوية - بدأ كمسمط يبيع لزبائنه لحمة الرأس والكرشة والفشة والطحال والممبار، ثم تحول إلى كبابجى.. وفى الحالتين كان مطعمًا نظيفًا جيدا ممتازًا، وإن كنت لم أدخله منذ سنوات بعيدة.

قالت «مارجريت» ونحن نجلس إلى مائدتنا فى المطعم الفاخر جدًّا جدًّا من الداخل، الذى كان مفاجأة لى أنا شخصيًا، أنها تشعر أنها فى دار للأوبرا فى أى عاصمة من غواصم العالم، بالأعمدة المستديرة العالية والنقوش فى أعلاها، والستائر الشيك جدًّا ذات اللون البيج الفاتح الهادئ تحجب الرؤية خارج المطعم وتحجب أيضًا الزبائن عن المارة فى الشارع.. الموائد المستديرة ذات المفارش شديدة النظافة والكراسى المذهبة ذات الظهور العالية.. وأطقم المائدة: الأطباق الصينى الفاخرة،

والملاعق والشوك والسكاكين من الطراز القديم، والفوط فى حلقتها الفضية.. كل ذلك يعطى عبقا خاصا وفخامة شرقية رصينة.. حتى أن «مارجريت» عادت لتقول: «تعرف أن الجو هنا يذكرنى تمامًا بمطعم (مكسيم) الشهير فى باريس، إلا فى شىء واحد، هو أن مطعم (مكسيم) مزدحم دائما، بينما كنا نحن الزبونين الوحيدين فى مكسيم السيدة زينب فى ذلك الوقت من اليوم –قبل الثانية ظهرًا–..كما أعجبتها جدا(النيفة)التى تطلبها باستمرار الآن بعد أن كانت قد سمعت عنها كثيرًا من كل أصدقائها الإنجليز الذين زاروا مصر قبلًا.. واحدة من صديقاتها استحلفتها أن تأكل طبقًا من النيفة زيادة باسم هذه الصديقة.. لكن الذى أشك فيه كثيرًا هو أن تلك الصديقة كانت تعنى أن أدفع أنا ثمن هذا الطبق الزيادة الذى كلفنى ثمانية جينهات كاملة.. لكن بالهنا والشفا طبعًا.

مارجريت معجبة جدا – كرسامة وكفنانة – بالحياة التى يموج بها شارع السد البرانى الذى فيه ضريح السيدة زينب.. وبما أننا – بعد الغداء – كنا قريبين جدا منه فقد أرادت أن تمشى فيه قليلًا.. كانت فى زيارتنا السابقة لضريح السيدة زينب قد لفتت نظرها (شحاتة) شابة زى القمر ذات عينين سوداويين واسعتين جميلتين مكحلتين.. ونحن نسير اليوم فى شارع السد وجدت «مارجريت» الشحاتة الجميلة جالسة فى مكانها المعتاد، فابتسمت لها وحيتها بود قائلة: Hello, how are you فقالت لى الشحاته مخضوضة: «أنا عملت لها حاجة دلوقتى يابيه؟» فقلت لها مطمئنا: «أبدا.. دى افتكرتك، فبتقول لك إزيك».. فطلعت الشحاتة تجرى ورانا وهى تزغرط حتى اختفينا عن نظرها.

صديقتي مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى» عازمانا الليلة لحضور فرح مصرى يقام فى فندق (النيل هيلتون).. طول عمرى لا أحب زيطة الأفراح وأكره حضورها وأشعر بالضيق الشديد إذا اضطررت لحضور فرح ما .. حتى أفراح أخوتى لم أحضرها - لأننى كنت خارج مصر وقتها !! - والفرح الوحيد الذى حضرته - مضطرًّا - كان فرحى أنا شخصيًّا !! وإن كنت لا أذكر الآن هذا الفرح كان بمناسبة إيه: زواجى أم طلاقى !!

لذا فقد طلبت من «هناء مصطفى» أن نكتفى بمشاهدة الزفة المصرية فى الهيلتون الليلة، ثم نخرج لنكمل السهرة فى مكان آخر..

وذهبنا أنا و «مارجريت» إلى الهيلتون ليلًا لكى نحضر الزفة من بدايتها.. وفى زحمة الزفة والفرح تهنا عن «هناء» فلم نلتق، لكننا حضرنا الزفة على أى حال.. ولأن الأفراح الإنجليزية ليس فيها غناء ولا رقص ولازفة، إنما بعد الكنيسة يتوجه العروسان ومدعويهما إلى مطعم أو نادى يكون محجوزًا مسبقًا فيتناولون العشاء جميعًا على مائدة واحدة طويلة، أو على مجموعة موائد صغيرة متفرقة، وقد يحدث - وقد لا يحدث - أن يرقص المدعوون معا كأى سهرة عادية..

لذا فقد فزعت «مارجريت» لصوت الدفوف العالى جدًّا جدًّا الذى يخرم طبلة الأذن، وكأن (المطبلاتية) يريدون أن تسمعهم القاهرة كلها وليس المدعوون هنا فقط، والغناء العالى جدًّا جدًّا، وكأنه صريخ أو صوات وليس غناء.. ومجموعة الراقصات يرقصن بطريقة أوتوماتيكية وبسرعة وقوام قوام كأن هناك ١٥ زفة أخرى تنتظرهن فى آخر مصر

الجديدة.. وبعض بنات الأسرة - أسرة العروس أو أسرة العريس - لا يعجبهن رقص الراقصات المستعجلات، فيقتحمن الحلقة بفساتينهن العادية ليرقصن رقصًا والله أجمل كثيرًا وأرق كثيرًا وأنثوى كثيرًا عن رقص هؤلاء الستات المستعجلات.. ولكن..

كنت قد لاحظته من أول لحظة بدأت فيها الزفة.. لفتت «مارجريت» نظرى إليه لتكوينه العام وملامح وجهه وتسريحة شعره وحتى (الشيب) فى فوديه، أنه يشبه كثيرًا إلى حد التطابق رئيس جمهورية الأرجنتين «كارلوس منعم».. لكن كارلوس منعم المصرى الليلة كان يحاول أن يبدو وكأنه ينظم الزفة، فيقف فى مقدمة الصف ويختار المنطقة المليئة بالفتيات والسيدات المتفرجات فيقف فى وسطهن ويفرد ذراعيه إلى جانبيه بطولها وكأنه (يوسع) لضاربى الطبول، لكن ليلمس بذراعيه، ويديه صدور السيدات والفتيات وهن مندمجات مع الزفة و (مش واخدين بالهم).. لكننى أنا كنت واخدبالى منه. وأراقبه وأنا مفروس جدًّا منه.. لذا فحين التقط بعينيه «مارجريت» بشعرها الأحمر المميز انتقل على الفور الى المنطقة التى نقف فيها، وضبط نفسه بحيث أنه حينما يفرد ذراعيه تكون «مارجريت» هى هدفه «المباشر».. لكنه لفرط «اندماجه» لم يلاحظنى إلى جوارها، لذا فما أن فرد ذراعيه حتى وجد أن يده تلمسنى أنا بعد أن وضعت نفسى بينه وبين «مارجريت» !! وكلما غير وضعه وجدنى سادد عليه السكة.. فما كان منه إلا أن مال على أذنى وهمس لى بحدة أن أبتعد قليلاً !!.. فشخطت فيه بصوت عالى - رغم ارتفاع دقات الدفوف - بأن يخرس ويتحرك بعيدًا وإلا طرقعته على قفاه قدام الناس

كلها فى وسط الفرح..وناولته - على سبيل العينة - زغدًا قويًا بكوعى جعله ينثنى كرقم ٦ وهو ينظر إلىّ مندهشا وكأننى مجنون!

وتـرك المكان كله وانتقـل إلى منطقـة أخرى يمـارس فيها نشـاطه «الاجتماعى»!!

جارتى الطيبة رنت لى جرس التليفون بعد منتصف الليل لتقول لى: «وحشتونا.. بقـالنا كـام يوم مـا شفناكمش.. نيجى لكم نقعـد معاكم شوية؟».. «ياألف أهلاً وسهلاً».. منذ أن سكنت فى شقتى فى هذه العمارة من٢٨سنة وأنا أحب هذه الأسرة كلها: الزوج - الذى أصبح مرحومًا الآن منذ عدة سنوات - والزوجة شديدة الطيبة والرقة والوداعة، والابنة الوحيدة التى كانت طفلة ظغننة زى القمر فى سنواتها الأولى، وأصبحت الآن شابة حسناء دلوعة وشخلوعة وزى القمر برضه.. وتوطدت العلاقة بيننا أكثر كثيرًا بعد وفاة المرحوم حتى أننا أصبحنا وكأننا أسرة واحدة، وكلما كنت فى مصر لا يمر يوم إلا وهما - الأم والابنة - عندى أو أنا عندهما.. أشعر تمامًا كما لو كانتا أختى وبنت أختى.

وصعـدت «إيلين» و «حياة» لتسهـرا معنا فى فـرانـدتى الكبيـرة.. «حياة» تطرطش شوية كلمات إنجليزى من هنا وهناك.. أما «إيلين» فهى لا تتكلم إلا اللغة العربية باللهجة الصعيدية جدًا لأنها - رغم أنها يونانيـة الأصل - إلا أنها من مـواليد (جنـا) - قنا - ومصـرة على الاحتفاظ بهويتها الصعيدية.. ظريفة جدًا «إيلين» وأحبت «مارجريت» كثيرًا.. لذا فعندما تجلسان معًا تكونان متآلفتين تمامًا، وتسمع منهما أظرف حوار ممكن أن يدور بين اثنين ستات: «إيلين» تكلم «مارجريت» باللغة

العربية الصعيدية وهى تعوج لسانها بلكنة بطريقة (تشطرى كالب) ظنا منها أن ذلك يكفى لكى تفهمها «مارجريت»: إچييك (إزيك) يا اختى؟ كويشة؟».. و «مارجريت» تكلم «إيلين» بانجليزية سليمة جدًّا وواضحة جدًّا وبطيئة جدًّا وهى تضغط على مخارج الألفاظ ظنًّا منها أن «إيلين» سوف تفهمها بهذه الطريقة.. والاثنتين (جيتو مبسوط كتير)! و«حياة» مغرقة فى الضحك على شكلهما معًا، وبين حين وآخر تتدخل لتترجم بينهما: «ياماما مش كده.. ماما عايزة تقول....» وتترجم فتقول شيئا مختلفًا تمامًا عما قالته مامتها وعما قالته «مارجريت»!! وأنا الوحيد المستمتع فى هذه الزحمة كلها، ربما لأننى مش فاهم حاجة أبدًا من الثلاثة.

مدعوان أنا ومارجريت اليوم للغداء فى جريدة الأهرام.. صديقى الصحفى الشاب - لأننا من سن بعض تقريبًا.. هو أكبر منى بـ ١٥ سنة فقط - «عبده مباشر» وزوجته الألمانية «بيرى» يدعوانى للغداء أو العشاء كلما كنت فى مصر، ربما لأننا أصدقاء عمر، وربما لأننا إحنا الثلاثة (شراقوة).. أنا و «عبده» من محافظة الشرقية، وزوجته «بيرى» من ألمانيا الشرقية!!

أثناء الغداء فى مطعم جريدة الأهرام دارت المناقشة حول مدى تجاوب الأجنبيات مع شكل الحياة فى مصر.. الألمانية تعيش فى مصر منذ ٢٢ سنة والإنجليزية من أقل من ٢٠ يومًا.. المدهش أننى فى كل مرة رأيت فيها «بيرى» وجدت أنها سعيدة جدًّا بحياتها فى مصر، وأن «مارجريت» حتى الآن كل ما رأته فى مصر قد أعجبها بشدة - (باستثناء البوابين والمياه المقطوعة وضربة الشمس وذبح الخرفان فى حمامات البيوت)!! - إلا أن

كلتيهما قد اتفقتا من أول المناقشة على أن الحياة فى مصر ليست مريحة بالنسبة للمرأة الأجنبية!!ولم أتمالك أن شعرت بالضيق لرأيهما هذا، وقلت لمارجريت ونحن فى طريق عودتنا إلى البيت: «على أى حال فإن بيرى قد تكون مضطرة إلى البقاء فى مصر وترك ترف ألمانيا (الشرقية) لارتباطها بزوج وبابنة شابة.. لكن الحمد لله أنك لست مضطرة وستعودين إلى إنجلترا بعد أن تنتهى إجازتك خلال أيام.. فمبروك عليك جنة إنجلترا ونعيمها».

بعد منتصف الليل يرن جرس التليفون فى البيت عندى ويأتينى صوت صديقتى العزيزة مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى»: «حسين.. عندى مفاجأة لكم.. لما شفت إن مارجريت يمكن تكون شبعت من القاهرة وتلاقيها بدأت تشعر بالملل، حجزت لكم شاليه فى العريش - على حسابى - لمدة خمسة أيام.. إيه رأيكم؟ تروحوا»!؟

مصيف لم يكن على البال، ولا على الخاطر، ولا كان فى البرنامج أساسًا..

- تروحى يا مزمزيل؟
- أروح يا خالو..
- تروحى يا مارجريت؟
- فين «الأريش» دى؟
- على البحر الأبيض..
- أبيض بنى كحلى أصفر مش مهم.. أروح أى حتة فيها بحر.. محتاجة لأجازة من الأجازة!

ورحنا...

الفصل السابع

ضابطات بوليس مستوردات!

من تحت العمارة فى ميدان رمسيس ركبنا تاكسى (بالنفر) من القاهرة إلى العريش.. فى الأيام العادية وفى الأحوال العادية، يتقاضى التاكسى المرسيديس الفاخر ثمانية جنيهات عن النفر.. لكن الدنيا صيف أولا، وشكلنا واضح أننا لسنا من أهالى العريش،ومعى حسناوان واحدة منهما خواجاية، فيبقى رايحين نصيف.. لذا أصر سائق التاكسى المهكع جدًا - التاكسى هو المهكع جدًّا وليس السائق - على أن يتقاضى منى ٣٠ جنيها وليس ٢٤ جنيها فقط.. وماله، إشمعنى ده اللى مش حايسرق يعنى.. جينا على سواق تاكسى وحانتشطر!

أذهب إلى العريش لأول مرة منذ ٢٤ سنة.. آخر مرة كنت هناك كانت قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بأيام قلائل.. بنت أختى رغم أنها مدرسة لغة إنجليزية قد الدنيا وبتعرف تعد من واحد لعشرة بالانجليزى دون أن تخطئ، إلا أنها سألتنى: «مش العريش دى اللى عند دير سانت كاترين

ياخالو» !؟ فزغرت لها لكى تخرس، وحمدت ربنا أنها سألتنى باللغة العربية حتى لا نتفضح أمام الأجانب.. أما «مارجريت» فأول مرة فى حياتها تذهب إلى سيناء.. انبسطت جدًا من منظر الصحراء الممتدة أمامها على مرمى البصر بلا نهاية، ومن شكل (المعدية) عند عبورنا قناة السويس بالعرض من الشاطئ الغربى إلى الشاطئ الشرقى، ونحن قاعدون داخل السيارة، بعد أن عبرتها - «مارجريت» - مرتين بالطول من بورسعيد إلى السويس عند سفرها إلى أستراليا، بعد تخرجها من كلية (ويلسدن) للفنون الجميلة فى لندن وذهابها للعمل كرسامة فى ملبورن، ثم عبرتها مرة أخرى بعد ذلك بـ١١ سنة من السويس إلى بورسعيد وهى عائدة من أستراليا فى طريقها إلى إيطاليا حيث عملت لمدة سنتين أخريين.

وتذكرنى مارجريت بأننى كنت قد حكيت لها أننى فى نفس الفترة التى عبرت فيها هى قناة السويس فى طريقها إلى أستراليا، كنت أنا أيضًا، قد تخرجت فى نفس السنة وعينت مهندسًا فى إحدى شركات البترول فى السويس - قبل اشتغالى بالصحافة - وكنت أقضى معظم أوقات فراغى ساعات طويلة جالسًا على (دكة) حجرية على شاطئ بورتوفيق، أرقب قوافل السفن التى تمر أمامى خارجة أو داخلة من وإلى بوغاز السويس من وإلى البحر الأحمر..وتتصور «مارجريت» - ربما لأنها فنانة وخيالها واسع - أننى لابد وأننى كنت جالسًا أرقب السفينة التى كانت هى عليها فى طريقها إلى أستراليا، لأنها هى نفسها كانت طول فترة عبور السفينة لقناة السويس تقف مستندة إلى حاجز السفينة ترقب الشاطئ المصرى.. فلابد وأننى قد رأيتها يومها دون أن نكون نعرف أننا يومًا ما بعد ٢٠

سنة، سوف نلتقى فى أمريكا ثم فى إنجلترا ونصبح صديقين حميمين هكذا.. فسألتها ببرود: «كنت لابسة فستان لونه إيه يومها؟»..

وصلنا العريش بعد خمس ساعات.. وبسهولة جدًّا اهتدينا إلى مصيف التليفزيون وإلى شاليه (وسام) الذى حددته لى «هناء مصطفى».. وبعد ٣ دقائق بالضبط كانت البنتان - «مارجريت» وبنت أختى - تغطسان وتقبان فى مياه البحر الأبيض.. من أول لحظة اتهبلت «مارجريت» على منظر البحر الأبيض الذى يطل عليه الشاليه مباشرة على بعد أقل من ٣٠ مترا رمال ونخيل.

كان إسمه زمان (شاطئ النخيل) - مثل (پالم بيتش) فى ميامى فى فلوريدا - والمنطقة اسمها (المساعيد).. وكنت قد سألت مرة عن حكاية إسم (المساعيد) فشرحوه لى ببساطة جدًّا: المساء عيد.. وتحولت باللهجة العرايشى إلى المسا عيد. ثم انضغطت فى كلمة واحدة لتصبح: المساعيد.

وبعد أن شبعت الآنستان غطسًا وقبقبة فى البحر الأبيض خرجتا تجريان من البحر وقد قرصهما الجوع.. فذهبنا كلنا إلى مدينة العريش نفسها على بعد حوالى ٤ كيلو مترات لكى نشترى ما نملأ به الثلاجة والنملية فى الشاليه للأيام الخمسة التى سنقضيها هنا: للإفطار فقط.. فإن كلا من الحسناوين، قد أعلنتا العصيان المدنى وقررتا عدم التعامل مع مطبخ الشاليه إلا لعمل الشاى فقط: «هو احنا جايين نصيف ونتفسح ونشم الهوا، والا جايين نضيع الخمس أيام فى الطبخ وتحضير السفرة وغسيل الأطباق والمواعين.. نتغدى ونتعشى برة ياخالو، وكل واحدة منا مستعدة تساهم فى المصاريف».. وأخرجت «ثناء» من كيسها قرش تعريفة

تذكارى تحتفظ به للذكرى والتاريخ منذ إلغاء المليم والتعريفة.. فسألتها «مارجريت»: «قد إيه ده يا ثناء؟» قالت ثناء: «حوالى ربع بنس» فقالت «مارجريت» على الفور: «خلاص.. يبقى ده لينا إحنا الاثنين»!

كرما أوى الستات دول..

وقضينا الليلة كلها سهراتين جالسين على رمل الشاطئ، وماء البحر يغسل أقدامنا فى الرايحة والجاية، وضوء القمر يغمر وجوهنا بلونه الفضى، ونحن نتكلم همسًا كأننا لا نريد أن نخدش شكل اللوحة الطبيعية الرائعة التى نعيش لحظاتها الآن.. وحين بدأت أضواء الفجر تنبلج من بعيد قالت مارجريت شيئًا غريبًا: «تعرف ياحسين ما الذى أتمناه الآن؟ أتمنى أن نموت الآن فى هذه اللحظة، وندفن معًا فى هذه البقعة الساحرة»!! فقلت لها: «معلش إسبقينى إنت وأنا أبقى أحصلك يعدين.. لسه عندى شوية حاجات لازم أخلصها قبل ما اموت».. فزعلت الست لأننى أفسدت شاعرية اللحظة..

ستات هِبْل..

نزلنا فى الصباح إلى مدينة العريش مرة أخرى لكى نتفرج عليها على راحتنا فى ضوء النهار.. مهما اتسعت العريش فهى لا تزيد عن قرية كبيرة.. نفطر فول وطعمية فى مطعم شعبى فى شارع السوق الرئيسى فى العريش.. منظر الشعر الأحمر واللغة الانجليزية لم يعد يلفت نظر العرايشية الذين اعتادوا إما على وجود السياح فى العريش بشكل دائم على امتداد السنة، أو وجود الإسرائيليين الذين احتلوا العريش مرتين

عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧.. لكن «مارجريت» هى التى أعلنت سعادتها الشديدة: بأنها الآن على أرض سيناء، التى لم تكن تحلم برؤيتها فى يوم من الأيام. والتى كانت تنزعج بشدة كلما سمعت عن أن هناك حربًا تدور على أرضها أو أن قوات إسرائيل قد احتلتها، لأنها ترى أن سيناء أرضا مقدسة.

الحسناوتان لاتريدان أن تخرجا من البحر.. كان الغداء ساندوتشات سريعة حتى تعودا إلى البحر مرة أخرى.. على اعتبار أننا سوف نخرج مساء للعشاء فى نادى ضباط الشرطة الذى مررنا عليه صباحًا ورأينا على بابه لوحة كبيرة بأنه يرحب بالضيوف المصطافين.. وطبعًا هذه الدعوة كانت تنطبق علينا، فنحن ضيوف ومصطافون.. لكننا حين ذهبنا إلى النادى فى المساء اكتشفنا أن النادى قعدته ظريفة جدًّا فعلاً، وراقية و محترمة فعلاً، لكنه لا يقدم إلا الغداء فقط وليس العشاء!!.. لذا فبعد قعدة سريعة قمنا من جديد نبحث عن مكان آخر نتعشى فيه.

مررنا على فندق اسمه (النورس) له حديقة كبيرة جميلة، فدخلنا لنتعشى فيه.. لكن مدير الفندق الشاب «عبد المحسن» قال لنا أن الفندق لم يفتتح بعد لذا فهو لا يقدم شيئًا على الإطلاق، حتى أنه هو شخصيًّا لم يتناول عشاءه منذ ٣ أيام، وأنه أرسل إلى أهله فى منيا القمح لكى يرسلوا له (زوادة) وإلا حايموت من الجوع فى هذا الفندق... ونصحنا بأن نذهب إلى فندق (أوبروى) غير بعيد عن مكاننا الآن، فهو المكان الوحيد الذى تجد فيه أكلاً فى هذه الساعة المتأخرة جدًّا من الليل فى العريش.. الثامنة مساءً!!.

وذهبنا فعلا إلى فندق (أوبروى). وفى مطعمه الفاخر الذى يطل على البحر مباشرة تناولنا عشاء رائعًا، وتعرفت «مارجريت» على (السمان) لأول مرة فى حياتها، والتهمت منه سمانتين بحالها.. وسهرنا وانبسطنا ثم تمشينا عائدين إلى الشاليه، والصحراء والنخيل يغمرهما ضوء القمر على يسارنا، والبحر الأبيض كسبيكة رائعة من الفضة هائلة المساحة على يميننا.. جو شاعرى تمامًا.. لكن بمجرد دخولنا الشاليه سألتنى «مارجريت» - وهى أروبة جدًا فيما يتعلق بمسائل الحسابات والفلوس: «إنت راجعت فاتورة الرستوران فى أوبروى»!؟ قلت لها: «لا .. أراجعها ليه؟» قالت: «ورينى كده» فأعطيتها الفاتورة فراجعتها بدقة ثم قالت فى انتصار: «لقد توقعت ذلك.. غالطوك فى الحساب يا مسترى قدرى ودفعوك ١٨ جنيها زيادة عن طلبات لم نطلبها ولم تجىء لمائدتنا.. ماذا ستفعل الآن!؟» قلت لها: «سأتصل بوزير السياحة بمجرد عودتنا إلى القاهرة» قالت: تحلف!؟» قلت: «أحلف».

وصمت ٣ أيام.. حاعكنن على نفسى ليه!؟ ويبقى لى فى ذمة وزير السياحة ١٨ جنيها.

لكننا من اليوم التالى أصبحنا زبائن مستديمين فى نادى ضباط الشرطة.. وأصبح الجرسونات العساكر يبتهجون لرؤية «مارجريت» ويحيونها هى و«ثناء» ولا يحيوننى أنا.. لعلهم ظنوهما ضابطات شرطة مستوردات وارد بريطانيا أو من السوق الحرة.. أطباق «مارجريت» المفضلة الآن هى السمان والأرز بالخلطة وسلطة الطحينة.. وتأكل بنفس

وشهية مفتوحة على مصراعيها حتى أنها هى نفسها مندهشة من ذلك وتقول إنها عمرها ما أكلت بهذه الكميات ولا هذه الشهية ولا هذه النفس المفتوحة..

فرحانة جدًّا هى بالبحر وبقربه الشديد من الشاليه، لذا فهى طول الوقت رايحة جاية بين الشاليه والبحر تبلل قدميها وساقيها وتجلس على الرمال على حافة الماء حتى تأتى الموجة فتغمرها كلها حتى صدرها لكى تكتسب اللون البرونزى وتعود به إلى إنجلترا، لكى تكيد زميلاتها بأنها قد صيفت على شاطئ البحر الأبيض فى مصر.. شعرها الأحمر وفستان البلاج عارى الظهر حتى وسطها يلفت نظر جيراننا أهل الشاليهات المجاورة، اللاتى ترتدى المتحررات منهن فساتين بأكمام طويلة، وذيل مجرجر على الأرض، ينزلن بها إلى البحر لكى تكتسب الفساتين اللون البرونزى الجميل!!

مارجريت تستيقظ من الفجر وتجرى إلى البحر بالمايوه لكى تكون على راحتها دون أن تخدش مشاعر جيراننا فى الشاليهات المجاورة.. لكن جارنا فى الشاليه الملاصق لنا انبهر للشعر الأحمر الذى يراه لأول مرة فى حياته فيما يبدو، فحاول جاهدًا أن يلفت نظرها.. لذا فهو يصحو مبكرًا هو الآخر وينتظرها على الشاطئ، وهو يلبس نظارة الغوص التى لا يخلعها أبدًا ويقف على الشاطئ تيها فخورًا نافشًا عضلاته، لكنه يجرى مرعوبًا إذا جاءت الموجة إلى ناحيته.. وسرعان ما توطدت الصداقة بينه وبين «مارجريت» وراحت تلاغيه ويلاغيها ويقضيان وقتًا طويلاً معا.. لكن حين تطورت المسألة إلى الأحضان والقبلات - وكنت أراقبهما من

بعد حتى لا يلاحظنى هو - سحبت كاميرتى وصورتها معا و (الإيد فى الإيد) حتى أمسك عليها دليل خيانتى مع شاب فى الرابعة من عمره.. فقد احتاج هذه الصور فى يوم ما !!.

حكت لى اليوم أن زميلة لها حين عرفت بأن «مارجريت» قادمة إلى مصر لتقضى أجازتها فى ضيافتى، حكت لها - وكأنها تحذرها - بأن صديقة لها إنجليزية تزوجت فى لندن من شاب مغربى وعاشت معه فى إنجلترا فترة.. وكان قد حكى لها أنه من أسرة مغربية غنية جدًّا، وأنه يمتلك فى المغرب قصرًا وسيارات وخيولا وخدمًا وحشمًا، وأقنعها بأن تذهب معه إلى وطنه فى أجازة.. فلما ذهبت فوجئت بأنه بدوى يعيش مع أسرته كلها (زوجتين غيرها و٩ أطفال) + الغنم والبهم، فى خيمة واحدة !! وطبيعى ألَّا يكون فى هذه الخيمة لا دش ولا بانيو ولا حمام ولا تواليت ولا ماء جارى !! وحبسها فى هذه الخيمة تحت الحراسة لا تغادرها حتى استطاعت الهرب والعودة إلى إنجلترا لتحكى قصتها للصحف الإنجليزية !!

أتصور أن زميلتها كانت تريد أن تقول لمارجريت بشكل غير مباشر أو حتى تحذرها وتنبهها بشكل مباشر، من أنها ينتظرها نفس المصير.. لذا فقد سألت أنا «مارجريت» إن كانت وهى على الطائرة فى طريقها من لندن إلى القاهرة، قد تصورت أن شيئًا كهذا ممكن أن يحدث لها؟ فقالت: «مش بالضبط، لكننى حين لم أجدك فى انتظارى تحت الطائرة فى مطار القاهرة كما وعدتنى، ووقفت فى طابور الجوازات نحو ١٠ دقائق دون أن تظهر، توقعت أسوأ الفروض، وقررت فى نفسى أننى إذا لم أجد احدًا من طرفك فى انتظارى خارج المطار، أحدًا أعرفه وأكون قد رأيته من قبل فى

لندن، مثل سعاد حسين أو سماح أو أنور عبد الله أو أشرف، فإننى لن أغادر المطار إلا بعد أن أتصل بالسفارة الإنجليزية لأعرف منها إيه حكايتك بالضبط.. ثم أعود إلى إنجلترا فورًا على أول طائرة ممكنة إذا لم تستطع السفارة الإنجليزية أن تهتدى إليك أو تدلنى على أخبارك».

سألتها: «والآن»؟

قالت بالعربية: «الهمدو لله» ثم استطردت بالانجليزية: «وعندما أعود إلى لندن سأقول لزميلتى أن صديقتها الإنجليزية هذه صعلوكة وقعت على صعلوك، والطيور على أمثالها تقع».

«مارجريت» من الآن تحلم - وتلح - فى أن نذهب إلى الاسكندرية التى سمعت عنها كثيرًا منى ومن «سعاد حسين» ورأتها وتعرفها من على الخريطة - الإسكندرية طبعًا، وليست سعاد حسين - ومهتمة بأن تعرف كم تبعد عن القاهرة وفى كم من الوقت نصل إليها بعد أن نترك القاهرة !؟ وسعدت جدًّا حين عرفت بأننا نقطع المسافة فى ساعتين تقريبا سواء بالقطار أو بالسيارة..

الإسكندرية فى برنامجنا فعلاً، لكن فى الأسبوع القادم.

سنعود من العريش إلى القاهرة غدًا.. وأردت أن نعود بالأوتوبيس الـ(سوبر جيت) على اعتبار أننا سوف نذهب إلى الإسكندرية بالقطار (التربينى) ونعود بسيارة خاصة فتكون «مارجريت» قد ركبت كل وسائل المواصلات الممكنة فى مصر.

ذهبت إلى محطة الأوتوبيسات الرئيسية فى العريش لكى أحجز تذاكر

العودة.. ولأننى أحجز لنفسى (نصف تذكرة) ببطاقتى الصحفية فقد عرف ناظر المحطة أننى صحفى، وأراد - كتر خيره - أن يجامل الصحافة بأن يسهل لنا الأمور، فسألنى عن موقع الشاليه الذى ننزل فيه، وطلب منى ألا نتعب أنفسنا بنقل حقائبنا من الشاليه لغاية محطة الأوتوبيس الرئيسية - ٤ كيلومترات تقريبا - وأنه سيعطى تعليماته لسائق الأوتوبيس بأن يتوقف أمام الشاليه لكى نركب من هناك.. كتر خيره.. كرم وأريحية مصرية غير مستغربة.. وحدث ذلك بالفعل فى اليوم التالى، لكن ما حدث «بعد ذلك» لابد وأن أحكيه بالتفصيل، عسى أن يقع عليه نظر أحد من المسئولين عن السياحة فى البلد.

توقف الأوتوبيس أمام الشاليه ونزلت منه فتاة جميلة ترحب بنا «أهلاً وسهلاً يا أفندم».. «أهلا بيكى ياست الحسن».. ووضعنا حقائبنا فى مخزن العفش وركبنا الأوتوبيس.. فاخر جدا ومريح جدا وهادئ جدا..

بمجرد أن جلسنا فى مقاعدنا جاءت الفتاة الجميلة تسألنى فى أدب شديد وبابتسامة واسعة: «حا تاخدوا إيه؟» سألت «مارجريت» فقالت: «سڤن آپ» وسألت «ثناء» فقالت: «مش حاخد حاجة.. حا انام» وغطست فى مقعدها المريح وراحت فى نوم عميق.. فقلت للمضيفة الحسناء: «سڤن آپ».. وذهبت الحسناء، وعادت ومعها زجاجتا (السڤن آپ) فتحتها وأعطت لى واحدة، ولمارجريت واحدة.. ثم ذهبت وعادت مرة أخرى لكى تضع على «حجر» كل منا صينية صغيرة من البلاستك الخفيف فيها قطع صغيرة من أشياء متناثرة: قطعة كيك صغيرة، قطعة بيتزا صغيرة جدًّا، باكو فيه بسكويتتين، كيس تشيبسى صغير.. وتركتها

على حجرنا ومشيت.. فظننت – ساذجا – أن هذه الصينية وزجاجتى الـ (السفن آپ) تجىء مع تذكرة الأوتوبيس مثل الوجبة والمشروبات التى تقدم على الطائرة، ورفعت رأسى شامخًا أمام «مارجريت» التى ترى بنفسها الآن مدى تقدما فى الخدمة السيح وتطورنا بها.. لكننا كنا لسه متغديين حالاً غداء حافلاً فى نادى ضباط الشرطة فى العريش، وليس فى معدتنا أى مكان لشىء آخر، لذا فقد أخذت «مارجريت» الصينيتين من على حجرى وحجرها ووضعتهما معًا فى شنطتها دون أن نمد أيدينا فيهما.. ولكن.

قبل وصول الأوتوبيس إلى محطته النهائية فى ميدان رمسيس بالقاهرة جاءت المضيفة أو الجرسونة الحسناء لكى تطلب منى سبعة جنيهات ثمنًا لهذه الفتافيت التى رمتها على حجرنا وطلعت تجرى زى بتوع النعناع فى تراموايات القاهرة زمان!!.. ووجدت نفسى موروطا أمام «مارجريت»، لكننى لم أشأ أن أبوظ فكرتها عن الخدمة السياحية فى بلدنا وأحولها إلى «الابتزاز السياحى» العلنى.. فأعطيت للجرسونة عشرة جنيهات فأعادت إلىّ جنيها واحدًا وتلكأت قليلاً متوقعة أن أقول لها (تخلّى الباقى علشانها) كبقشيش، فلما لم أفعل أعطتنى جنيها آخر وهى متأففة ومتضررة وعلامات الاشمئناط تبدو على وجهها الجميل.. وبرضه تلكأت مرة أخرى فلما لم أقل لها تخلّى الجنيه الباقى علشانها سألتنى بسداغة: «هى الصينية كان فيها كيس تشيبس والا لأ؟» فقلت: «أيوه كان فيها كيس تشيبس» فقالت ببرود وهى تعطينى ظهرها وتنصرف: «يبقى خلاص، كده مضبوط»!!.. يعنى أكون قد دفعت ثمانية جنيهات فى مقابل

زجاجتي سفن آب !!

ولم أستطع أن أسكت أكثر من ذلك ولتذهب سمعتنا السياحية فى ستين داهيـة إذا لم أرفض - كصحفى على الأقـل - هذه السـرقة العلنى.. فناديت مشرف الأوتوبيس أو الكمسارى وسألته: «هل البوفيه اللى فى الأوتوبيس تابع للشركة نفسها والا قطاع خاص»!؟ فقال وهو يـرفع حاجبًا ويخفض حاجبًا كفريد شوقى فى أفلامه القديمة: «قطاع خاص، بتسأل ليه»؟ قلت له إننى صحفى وإننى طلبت زجاجتى سفن أپ فقط لاغير ولم أطلب شيئًا آخر، فهل أنا مضطر ومجبر على أن أدفع ٨ جنيهات ثمنا لزجاجتين سفن أپ؟! أريد أن أعرف هل هذه الجنيهات الثمانية التى دفعتها سوف تدخل خزينة الشركة الليلة أم ستدخل خزينة حـد آخـر؟ لأننى سوف أتصـل غدًا صبـاحا بـرئيس مجلس إدارة شركـة الأوتوبيس وأحكى له عن هذا الابتزاز - إذا لم يكن يعرفه فعلا - لكى ينهى عقد الذى أو التى - (فقد اتضح أنها «التى») - تدير هذا البوفيه ويطردها لأنها تسرق الركاب علناء أو أن يفقد هو منصبه كرئيس مجلس إدارة الشركة لأنه لو كان يعرف بما يحدث فى أوتوبيساته وساكت وراضى فهو إذن يشتغل لحساب البوفيه وليس لحساب الدولة التى تمتلك شركة الأوتوبيس هذه !!

وذهب مشرف الأوتوبيس وتكلم مع الجرسونة فنظرت إلى ناحيتى وقد امتقع وجهها - الجميل - واختفت ابتسامتها - الجميلة - لكنها لم تفعل شيئًا.. فناديتها وطلبت منها فاتورة بالمبلغ الذى دفعته، تبين فيهـا أننى طلبت ٢ سفن أپ فقط.. فقالت لى وهى مرعوبة إنها ليست لديها فواتير،

ولم يحدث أبدًا على امتداد الأربع شهور التى عملت فيها فى هذا (المنصب) أن طالبها أحد من الركاب بفاتورة من قبل.. فطلبت منها أن تريني (قائمة الأسعار) المعتمدة من الشركة أو من وزارة السياحة التى تحاسب الركاب على أساسها.. فقالت إنها ليست لديها قائمة أسعار ولم يحدث من قبل أن طالبها أحد من الركاب بقائمة الأسعار. فسألتها: «والراكب يعرف منين إن الأسعار اللى بيدفعها لك هى الأسعار المضبوطة وأنك لا تسرقينه سواء لحسابك أنت شخصيا، أو لحساب المعلمة التى تدير هذا البوفيه.. (وكنت قد عرفت من مشرف الأوتوبيس أن التى تمتلك وتدير بوفيهات أوتوبيسات الشركة كلها واحدة ست قال هو عنها: المعلمة!! ياترى تقرب لمين بالضبط هذه المعلمة)!؟.. واستطردت أكلم الجرسونة الحسناء ممتقعة الوجه: «على العموم فغدًا صباحًا سأتصل برئيس مجلس إدارة شركة الأوتوبيس وأطلب منه يشوف إيه حكاية المعلمة بتاعتكم دى بالضبط.. وسأتصل بوزير السياحة علشان الوزارة تحاسبكم على الأسعار دى القديم والجديد من يوم حصولكم على عقد بوفيهات أوتوبيسات الشركة».

فاعتذرت الجرسونة الحسناء بأن هذه هى غلطتها هى، وأنها هى التى سوف تعاقب وسوف تفقد وظيفتها بسببها، وأنها لسه متعينة جديد من أربعة شهور فقط!! ومش عارفة النظام بالضبط، وأنها كانت تظن أنه بما أن المسافة بين العريش والقاهرة طويلة فإننى «قد» أحتاج إلى هذا الأكل!! فقلت لها إننى لم أطلب منها أكلًا، وإنما طلبت زجاجتى سفن أپ فقط، ثم: هل سعر هذه الصينية بالفتافيت اللى عليها أربعة جنيهات!؟

فقالت إنها فى الحقيقة ليست متأكدة بالضبط من الأسعار، وإنما هى تقدرها هكذا بتقديرها الشخصى !! فسألتها مندهشًا : «ورصيد تقديرك الشخصى ده بيروح للمعلمة صاحبة البوفيه كل يوم وهى راضية به وموافقة عليه من غير ما تقول لك إن ده كثير، أو يمكن ده قليل» !؟

فمدت الجرسونة - الجميلة - يدها بثمانية جنيهات أعطتها لى.. فسألتها عن ثمن زجاجتى الـ(سفن أپ) ؟ فمدت يدها مرة أخرى وأخذت من يدى ١٢٠ قرشًا.. وكانت يد «مارجريت» أسرع منها وهى تعيد إليها الصينيتين، اللتين ستكونان قطعًا من نصيب راكب آخر سوف يدفع صاغرًا ٨ جنيهات-وربما أكثر - لأنه ليس صحفيا وليس طويل اللسان مثلى.. أو ربما لأنه سيخشى البهدلة والتهزىء حين يرى فريد شوقى الأوتوبيس يرفع له حاجبًا وينزل حاجبًا !!

ورغم أن حصيلة مارجريت من اللغة العربية لاتزيد عن ٣ كلمات : صباه الهير - الهمدو لله - سلامو أليكم.. إلا أنها حكت لى - بالإنجليزية طبعًا - كل الحوار الذى دار بينى وبين فريد شوقى الأوتوبيس أولا، ثم حوارى مع ليلى علوى البوفيه ثانيًا - وكأنها كانت تستمع إليه من جهاز ترجمة فورية.. وانبسطت - هى - جدًّا من أننى قد أعدت الأمور إلى نصابها وأوقفت عملية الابتزاز هذه، وقالت لى : «ماذا كنت سأفعل أنا كأجنبية عن البلد لو كنت وحدى» !؟ فقلت لها : «نفس ما كان يمكن أن يفعله - أو الأدق أن أقول «ألا يفعله»-أى واحد من الركاب المصريين لا يكون جريئًا وسليط اللسان وقوى الجسم بحيث

لا يخشى من تلعيب حواجب فريد شوقي ولا ينكسف من حلاوة ليلى علوى»..

ولم تفهم «مارجريت» شيئًا طبعا..

لكنها فى الصباح التالى وهى توقظنا من النوم بصينية الشاى والإفطار قالت لى: «ما تنساش تكلم النهارده وزير السياحة» فقلت مندهشا وكان الموضوع كله قد طار من دماغى: «أكلم وزير السياحة ليه»!؟ قالت: «علشان تقول له عن فريد شوقى وليلى علوى - (فقد ظنت أنهما الاسمين الحقيقيين لمشرف الأوتوبيس وجرسونة البوفيه) - وكمان ماتنساش تقول له عن الـ١٨ جنيه بتوع رستوران فندق أوبروى»!!

الفصل الثامن

أطول لسان
فى أفريقيا ! !

حسبتها مارجريت على أصابع يديها: «إذا كنا سوف نذهب إلى الإسكندرية غدًا لمدة خمسة أيام، فإننا سوف نعود إلى القاهرة فى اليوم السادس لساعات قليلة، لأننى فى صباح اليوم السابع سأكون على الطائرة فى طريق عودتى إلى لندن.. إذن فاليوم هو آخر فرصة لى لأتجول مرة أخيرة فى شوارع القاهرة، جولة الوداع.. قيام.. البسا.. سننزل الآن حالاً».

ديكتاتورة هذه السيدة، وقطعا كان نفسها تطلع شاويش فى الجيش البريطانى لكنها ما جابتش مجموع.. قمنا ولبسنا ونزلنا فى آخر جولة لها فى شوارع القاهرة التى أحبتها كثيرًا.. وأصبحت تعرف ميدان (التهرير) وشارع (سوليمان باشا) و (كصر النيل) وشواربى ومحطة المترو (أهميد أورابى) وميدان رمسيس.

قبل أن ننزل من البيت عدت جنيهاتها الإسترلينية التى جاءت بها

معها من لندن، قالت باندهاش: «هذه هي أرخص أجازة صيف قمت بها في حياتي.. إنني أكاد لم أنفق شيئًا» قلت لها مشاكسًا: «كوني دقيقة في كلامك.. قولي إنك (لم تنفقي شيئًا).. قالت: «ثناء وعدتني بأنها سوف تغير لي ١٠ جنيهات إسترلينية بـ ٥٥ جنيهًا مصريًا سوف أنفقها كلها عن آخرها اليوم.. وإذا فاض منها شيء فسأشتري لكما جيلاتي على حسابي».

اشترت جلابية منقوشة مدندشة من جلاليب كرداسة قالت إنها سوف تذهب بها إلى مرسمها في شارع (كنجز رود) في حي (تشيلسي) أغنى وأرقى وأغلى أحياء لندن.. وشارع (كنجز رود) هو شارع الموضات والتقاليع وعلى رصيفه طول اليوم عرض أزياء مستمر تقدمه أشيك وأجمل وأغنى بنات لندن، يرتدين أعبط ما يمكن أن تلبسه بنت أوروبية، ومع ذلك فهو لايق عليهن جدًا ولاد الإيه، أو الأصح أن نقول (بنات الإيه).. ليس هلاهيل، وليس مقطعًا ومهربدًا فهذه موضة ولاد الإيه التانيين.

اشترت أيضًا كل الأشياء التي كانت قد جربتها لأول مرة وأعجبتها خلال زيارتها لمصر: اشترت (لسان العصفور) الذي ذاقته مرة واحدة حين أصابتها ضربة شمس فطبخت لها «إيلين» فرخة مسلوقة بشوربة لسان العصفور، فظنته «مارجريت» نوعًا من الدواء اللذيذ موصوفًا لضربة الشمس، فاشترت منه كيسين أتصور أنها سوف تضعهما في أجزاخانة بيتها في لندن.. اشترت أيضًا علبة ملبن لـ: قطتها !! قالت أن قطتها تحب الملبن.. أول مرة في حياتي أسمع أن القطط بتاكل ملبن..

اشترت كمية توابل مصرية كانت قد رأت مثلها فى مطبخ البيت عندى، أنا متأكد تمامًا أنها لن تعرف كيفية استخدامها فى طبخ الأكل. اشترت كمية (كعب غزال).. وهو فطير صغير جدًّا محشو بالعجوة أعجبها اسمه قبل أن يعجبها طعمه.. أرادت أن تشترى كمية (كيك مصرى) - الطعمية التى وقعت فى غرامها ولن تسلاها أبدًا - لكننى أقنعتها بأن تؤجل الطعمية إلى آخر يوم قبل سفرها حتى تأخذها معها طازجة، وليست بايتة لمدة ٧ أيام!

ونحن فى شارع شواربى نظرت فجأة إلى ساعتها وقالت بخبث ورثته لا شك عن أجدادها الأوائل الذين كانوا يهودًا قبل اختراع الإنجليز: «مش إحنا دلوقتى فى شارع كصر النيل؟ يعنى قريبين من بيت أخوك.. تعالى نروح نفاجئهم، نسلم عليهم وأودعهم، ونتعشى عندهم»!!

الست دى لو قعدت فى مصر شهر واحد كمان حاتبقى ألعن من المصريين..

أعجبها بيت «أحمد فؤاد» أخى الأكبر أكثر من بيتى.. قالت إن بيتى أوروبى زيادة عن اللزوم، ويكاد يكون نسخة مكبرة من بيتى فى لندن.. لكن بيت أخى مصرى أكثر وشرقى أكثر.

هللت لها «مديحة» زوجة أخى، وزاطت وفرحت بها «هدى» ابنة أخى لأنها أحبتها كثيرًا.. وأخذتها «مديهة» - كما تنطق اسمها - معها إلى المطبخ وعادت وفى يدها صينية فيها طبق بامية ورغيف عيش بلدى!! وغمست البامية بإيدها بالعيش كما رأتنا نفعل، ومزمزت بها حتى جهز العشاء، فتعشت معنا مرة أخرى.. بعد العشاء شربت كوبين من عصير

الفراولة حتى كادت أن يغمى عليها من النشوة والسعادة.. لا أظن أن كثيرًا من السياح يكون عندهم الفرصة التى كانت عند «مارجريت» لترى شكل الحياة المصرية اليومية داخل البيت المصرى العادى، مثل بيتى وبيت أخى وبقية بيوت الأسرة والأصدقاء التى زارتها معنا.

وجاء يوم السفر إلى الإسكندرية.. أعجبت مارجريت كثيرا بالقطار التربينى وقالت إنه لا يقل عن خطوط السكك الحديدية الإنجليزية الشهيرة (إنتر سيتى) ذات اللون الأصفر المميز.. أعجبها كثيرًا كذلك الغداء الذى تناولناه فى مقاعدنا فى القطار دون أن نحتاج إلى أن ننتقل إلى عربة الأكل.. فقد كان الغداء وجبة كاملة مطهوة جيدًا، ورخيصة جدًّا سواء حسبناها بالعملة المصرية أو بالإسترلينى.. فبالإسترلينى لا يتجاوز ثمنها جنيهًا واحدًا.. وقالت إن وجبة مثلها فى قطارات إنجلترا لن تقل عن ١٥ جنيها.. إسترلينى طبعًا.

إنبسطت جدًّا من منظر الحقول الخضراء الممتدة على الجانبين على إمتداد البصر طوال المسافة بين القاهرة والإسكندرية.. هى مثل كل الأوروبيين تحب الزرع وتعشق اللون الأخضر.

على يميننا فى الجانب الآخر من العربة أسرة عربية لم أستطع أن أتعرف على جنسيتها من لكنتها العربية: سيدة جميلة شابة بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ومعها أورطة أطفال من مختلف الأعمار.. سبعة أو ثمانية أطفال من سن ١٤ ونازل.. كادت أن تحتكر بوفيه القطار لحسابها طوال الوقت، والـ ٢ تروللى المخصصين لخدمة العربة كلها كانا يادوب رايحين جايين ومش ملاحقين على طلبات السيدة الشابة التى بين الخامسة

والثلاثين والأربعين !! المدهش أن الأطفال لم يكونوا هم يطلبون شيئًا، لكن السيدة هى التى كانت تلح وتضغط وتتوسل، ثم فى النهاية تشخط وتأمر، ليأكلوا هذا ويشربوا ذاك.. والأطفال يأكلون ويشربون مضطرين مرغمين.. ويأكلون من الحاجة نصفها ويشربون من الزجاجة ربعها، ثم يتركونها.. والسيدة تبدو وكأنها تريد أن يرى كل ركاب العربة قد إيه هى غنية ومعاها فلوس.

«مارجريت» لم ترفع عينيها عن هذه السيدة وفرقتها طوال الوقت.. ثم مالت علىّ لتهمس فى أذنى: «أتمنى أن أستطيع أن أقرأ بنفسى ماذا سوف تكتبه عن هذه المرأة السمينة التى تبدو محدثة نعمة وجديدة على الثراء.. سوف تكتب عنها أليس كذلك» ؟!.

لكن قبل أن أرد عليها كانت مفاجأة جديدة تطب علينا.. سيدة أجنبية، بطة بضة بيضاء قاربت الستين لازالت بها مسحة من جمال قديم غابر.. كانت تجلس على بعد ٣ أو ٤ صفوف من مكاننا فى مواجهتنا بحيث ترانا ونراها.. شكلها المدندش زيادة عن اللزوم يوحى بأنها - ولو أنها أجنبية - إلا أنها بلدى جدا والثراء شىء جديد عليها.. طول الوقت وهى تراقبنا ولا ترفع عينيها عنا وكأنها تحاول أن تصطاد عينينا بنظراتها.. حتى التقت عيناى بعينيها فعلاً فابتسمت لى ابتسامة واسعة، فبادلتها ابتسامتها وهززت لها رأسى، فعلى الفور تركت مكانها فى عربة القطار وجاءت لتجلس فى المقعد الخالى أمامنا بجوار «ثناء» لكى تسألنا بالإنجليزية بلكنة أجنبية: هل التقينا فى مكان ما قبل ذلك !؟ لأنها تشعر أن وجوهنا مألوفة لديها، وأنها ممكن أن تكون قد رأتنا فى أى مكان فى

العالم، لأنها تقضى معظم شهور السنة تتجول فى العالم منذ وفاة زوجها دون أن ينجبا أولادًا.. هزت «مارجريت» رأسها نفيا وقالت للسيدة إنها لا تذكر أنها رأتها من قبل.. وقلت أنا للسيدة إن الدنيا قد أصبحت صغيرة ومحتمل أن نكون قد التقينا فى أى مكان فى العالم ولم نتكلم لكننا نتذكر وجوه بعض.. وأننى على أى حال سعيد بمعرفتها.. سألتنا هل نحن سياح؟ فقالت لها «مارجريت» إنها إنجليزية تزور مصر الأول مرة، وإن مستر قدرى - اللى هو أنا - مصرى لكنه يعيش فى إنجلترا فى الوقت الحالى بحكم عمله.

وفوجئت بالسيدة وقد علت وجهها فجأة علامات الاشمئناط والقنعرة والكبرياء وهى تقول لى: «مصرى؟! لقد ظننتك إيطاليًا.. لقد عشت طفولتى هنا، وكان أبى واحدًا من عشرات اليونانيين المليونيرات فى مصر، ثم تركناها إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا.. المصريون ناس سيئون جدًّا.. لقد كنا نسكنُ فى قصر فخم فى الموسكى - هكذا!! - وكان لدينا سيارات وعربات تجرها الخيول، وعشرات من الخدم والعبيد كلهم مصريون.. وكان أبى يضربهم بالكرباج كل يوم.. فلما قامت الثورة فى مصر سرق الخدم والعبيد المصريون كل شىء حتى السيارات والخيول.. لقد كنت صغيرة ولا أذكر كل التفاصيل، لكننى أجىء إلى مصر بين حين وآخر لأحاول أن أبحث عن قصرنا القديم فى الموسكى فلا أجده»!!

فقلت لها على الفور: «حين قامت الثورة فى مصر ياسيدتى لم يكن عمرك أقل من ٥٠ سنة.. لذا فأنت قطعًا تتذكرين جيدًا أنه لم يكن قصرا فى الموسكى لكنه كان غرفة فوق السطوح فى السكاكينى أو الظاهر أو

جزيرة بدران أوالترعة البولاقية أودرب البرابرة أوحارة اليهود...
والمليونيرات اليونانيين الذين تتحدثين عنهم كانوا كلهم جرسونات فى المقاهى والبارات والخمارات فى القاهرة والأرياف، والكويس فيهم كان فاتح دكان بقالة جريجى، وكانوا جميعهم كوستا وينى وماريو وخرالمبو.. وكانت ستاتهم اليونانيات كمريرات ودادات وخادمات فى بيوت الأعيان المصريين.. وبناتهم اليونانيات الجميلات منهن كن كومبارس فى السينما فى مصر، أو راقصات عند بديعة مصابنى وببا عز الدين وصفية حلمى، وغير الجميلات كن بائعات فى شيكوريل وشملا وسمعان صيدناوى وعمر أفندى وأوريكو واسكندر أڤيرينو، أوبائعات حلويات فى الأمريكين وجروبى وتسيباس وقويدر، وفى أوقات فراغهن كن يبعن أشياء أخرى أنا أذكرها جيدًا بحكم أننى كنت مراهقا حين قامت الثورة و .. و .. و ..

وقاطعتنى مارجريت وهى تقول للسائحة اليونانية العجوز بأدب شديد: «سيدتى لقد جئت للمكان الخطأ وللشخص الخطأ.. وكان ينبغى علىّ أن أنبهك من البداية إن مستر قدرى هو صاحب أطول لسان فى القارة الأفريقية كلها.. وها هو قد نكد عليك بدلا من أن تنكدى أنت عليه.. فهل تكتفين بذلك وتعودين إلى مقعدك،أم أحكى لك أنا أيضًا عن اليونانيين الذين رأيتهم فى أستراليا» !؟

وشمخت بأنفها السيدة اليونانية التى انتهى عمرها الافتراضى منذ ٢٠ سنة على الأقل.. وقامت من سكات دون أن تنطق كلمة أخرى.. ولم أرها بعد ذلك فى العربة كلها حتى وصلنا إلى الإسكندرية.

محجوز لنا ومدفوع مقدما فى فندق من أشهر فندقين فى الاسكندرية

يطل على البحر مباشرة وله شاطئه الخاص.. ومع ذلك فقد اضطررنا إلى البقاء بحقائبنا أكثر من نصف ساعة فى بهو الفندق حتى ينتهى قسم الاستقبال من «البحث» عن الغرف المحجوزة لنا - والمدفوع أجرها مقدمًا - وكأنها تاهت منهم أو سيرسلون لشرائها من فندق آخر.. بنات وشبان قسم الاستقبال متجهمون دائما ويتعاملون مع النزلاء بكثير من الكبرياء والتعالى و (التنطيط) كما لو كان النزلاء لاجئين من ڤيتنام الجنوبية يطلبون معونة الشتاء من إدارة الفندق.. حتى يصل الأمر إلى التريقة على نزيلة عربية كانت تدفع إيجار جهاز ڤيديو وتليفزيون استأجرتها لكابينتها.. ولم تعرف موظفة الاستقبال الجميلة - فى عز الموسم السياحى - الايجار المطلوب للڤيديو.

الغرفة فاخرة جدًا، ونظيفة وشيك بكل المقاييس.. لكننى أفهم أن فندق ٥ نجوم تتبع إدارته فندق شبرد، أن يكون بكل غرفة تليفزيون ملون أو حتى أسود وأبيض، جهاز راديو، ساعة حائط.. لماذا يدفع النزيل نحو ٢٠٠ جنيه مصرى فى الليلة الواحدة، للمبيت فقط، إذا لم يكن فى الغرفة حتى هذه الأشياء البسيطة.. طلبت «مارجريت» مكواة لتكوى (چوبتها) التى ستخرج بها فى المساء..طلبت المكواة فى السادسة مساء.. وخرجنا للعشاء وعدنا، ولم تصل المكواة إلا بعد منتصف الليل.. فى الواحدة صباحًا رفعت سماعة التليفون فى غرفتى لأطلب من عامل تليفون الفندق أن يوصلنى بفندق شيراتون المنتزه عبر الشارع، فرد علىّ عامل التليفون بغلظة وجفاء وفظاظة كأننى أزعجته من نومه، ولم يعطنى المكالمة إلا بعد أن طلبتها منه ٣ مرات على امتداد نصف ساعة.. رأيت

صورة «سماح أنور» على غلاف مجلة مصرية أعجبت «مارجريت» وأرادت أن تحتفظ بها تذكارًا، اشتريتها من محل بيع الصحف فى بهو الفندق.. البائع العجوز فى المحل طلب منى ٧٥ قرشًا.. «ليه يا صديقى؟ دى مكتوب عليها إن سعرها ٤٠ قرشًا فقط»؟ فمد يده وأخذ المجلة من يدى ليضعها مرة أخرى بين المجلات المعروضة وهو يقول لى ببرود: «من غير ليه.. إحنا أسعارنا كده»!! فى كل فنادق العالم التى تعاملت معها، حتى لو كانت فنادق نجمة واحدة وليست ٥ نجوم، فإن إيجار الغرفة يشمل الإفطار أيضًا.. هنا لأ .. وإذا تجاسرت وطلبت فنجانين شاى فى غرفتك فى أى وقت فإن فاتورة الستة جنيهات التى ستدفعها فى كل مرة سوف تجعلك تفضل أن تأخذ تاكسى لتنزل إلى محطة الرمل لتشرب شاى هناك وترجع.. أرخص كتير قطعًا.

وحين انتهت إقامتنا طلبت من مكتب الاستقبال أن يرسل واحدًا من حاملى الحقائب ليأخذ حقائبنا من الطابق الرابع إلى بهو الفندق.. بعد نصف ساعة لم يأت أحد فأخذنا حقائبنا بأنفسنا ونزلنا بها.. طابور طويل من الذين مهمتهم حمل حقائب النزلاء واقفون صفًا طويلاً فى مدخل الفندق لا يفعلون شيئًا، وما أن تقف بحقائبك - التى أنزلتها من الغرف بنفسك - أمام مكتب الاستقبال حتى ينقض عليك ٣ أو ٤ من حاملى الحقائب هؤلاء لكى ينتزعوا منك الحقائب لينقلوها مجرد ١٠ خطوات من أمام مكتب الاستقبال إلى جوار باب الفندق الزجاجى.. فإذا أعطيت الواحد منهم جنيها أبقى الجنيه فى يده المفتوحة الممدودة إليك وهو ينظر فى عينيك مباشرة باستنكار وكأنه سوف يشتمك أو يرمى الجنيه فى وشك..

ويبدو فى النهاية أن عذاب الإقامة فى الشقق المفروشة أهون كثيرًا من عذاب النزول فى فنادق الدرجة الأولى.

مارجريت لم تجيء إلى الإسكندرية - وإلى مصر كلها - لكى تنام فترة العصر.. تركتانى نائما ونزلت هى و «ثناء» إلى الشاطئ الخاص بالفندق، ثم جلستا بعض الوقت فى بهو الفندق.. قالت «مارجريت» إنها تريد أن تتفرج على نوعية الناس الذين ينزلون فى فنادق الدرجة الأولى فى مصر فى عز موسم الصيف هكذا.. وعادتا إلىّ وهى مندهشة جدًا: «كيف تقولون إنكم دولة من دول العالم الثالث، ودولة مدينة بمليارات الجنيهات واقتصادها راكع على ركبتيه أمام الدولار والاسترلينى والين والمارك، ثم يكون ٩٥٪ من نزلاء هذا الفندق مصريين!؟.. وهم ليسوا مصريين رجال أعمال أو فى مأموريات عمل، لكنهم أسر وعائلات بأكملها بأطفالها وعيالها وشبانها وبناتها وخدمها وكلابها وقططها.. كيف تكون مصر دولة مدينة إذا كان كل واحد من هؤلاء قادرًا على أن يدفع ٢٠٠ جنيه فى الليلة الواحدة فى الغرفة الواحدة، غير الأكل.. ومؤكد أن الأسرة كلها لا تنزل فى غرفة واحدة.. هل تستطيعان تفسير هذه المعادلة الغريبة لى»!؟

ردت عليها «ثناء» بالعبارة المصرية الشائعة جدا هذه الأيام: «اكتبى لأمينة السعيد»!!

المهندس «ثروت أسعد» صديقى منذ أكثر من ٢٠ سنة، منذ أن كان مهندسًا حديث التخرج حتى أصبح الآن كبير الخبراء فى هيئة اللويدز العالمية للتسجيل البحرى.. «ثروت» يدعونا إلى العشاء الليلة فى (النادى

السورى) فى محطة الرمل.. أرى «ثروت» كثيرًا كلما جئت أنا إلى مصر، وكلما ذهب هو إلى إنجلترا بحكم عمله، لكننى لم أر ابنتيه «شيرين» و «نرمين» منذ كانتا طفلتين صغيرتين حتى فوجئت بهما الليلة شابتين حسناوتين واحدة منهما طالبة فى الجامعة، والثانية محصلاها فى العام القادم.. كانت مع البنتين صديقتهما «دينا» فى مثل عمرهما.. البنات الثلاث تعلمن فى مدارس أجنبية طول عمرهن، لذا فلغتهن الإنجليزية ممتازة.. «نادية» زوجة «ثروت» رغم أنها مهندسة زراعية إلا أنها قد طورت لغتها الإنجليزية لكى تكون على مستوى إبنتيها.. «ثروت» كبير الخبراء فى شركة «إنجليزية».. لذا فرغم أن القعدة فى النادى كانت ظريفة جدا والعشاء كان فاخرًا جدًّا، إلا أننى لم أملك إلا أن ألتمس العذر لمارجريت فى الملل الذى كان يصيبها بين حين وآخر حين يستغرقنا جميعًا - بحكم العادة - الحديث باللغة العربية وننسى أن معنا ضيفة إنجليزية يجب ألا نتركها تشعر بالوحدة، وهى جالسة بين ٦ أشخاص جميعهم يجيدون الإنجليزية.. وطبعًا كان يضايقها أكثر أن نضحك كثيرًا على شىء ما أو على حكاية ما دون أن تشاركنا هى الضحك، فتكون قاعدة (زى الأطرش فى الزفة) لأنها لا تعرف لماذا نضحك!!

الفصل التاسع

راقصات الحكومة!

مارجريت تعود إلى إنجلترا يوم السبت القادم، لذا فهى تريـد أن تطمئن إلى أن مكانها محجوز على طائرة مصـر للطيران لـذلك اليـوم، ولا تريد أن تترك شيئًا للظروف.. فشلت تماما فى الاتصال تليفونيا بمكتب مصر للطيران فى محطة الرمل.. فإما أن الخط مشغول باستمرار، أو إذا رن جرس التليفون فلا أحد يرفع السماعة ليـرد.. لم يكن أمامنـا بد من الذهاب إلى مكتب مصر للطيران فى محطة الرمل بأنفسنا.

لابد وأن هناك طريقة أكثر تحضرًا من هذه الطريقة.. عشرات من الناس يملئون المكتب بغير نظام وكأنه جمعية استهلاكية يوم توزيع الفراخ، ولا أحد يرد على أحد لأن الجميع يتكلمون فى وقت واحد.. ولا أعرف إن كان العيب فى عدم وجود نظام واضح للعمل فى المكتب، أو العيب من موظفى المكتب، أو أن العيب فينا نحن جمهور المتعاملين.. لكننى لا أرى هذه الصورة أبدًا إلا فى مكاتب شركات الطيران العربية والأفريقية.. للأسف.

المهم أننا بعد دقيقة واحدة من وجودنا فى داخل هذه المعمعة أدركت أننا لن نصل إلى أى شىء مع هذه الزيطة، وممكن أن نقضى هنا عدة ساعات دون أن ننهى شيئًا.. فأخذت «مارجريت» وانصرفنا وفى ذهنى أن أتصل تليفونيا بالقاهرة بصديق لى عضو مجلس ادارة فى مصر للطيران.. وأقترح على كل واحد من جمهور المتعاملين مع الشركة أن يبحث له عن واحد من أعضاء مجلس إدارة مصر للطيران، ويصاحبه.

كان اليوم هو يوم السياحة فى الإسكندرية.. لم أزر المتحف الرومانى من قبل فى حياتى، لكننى حين زرته اليوم مع «مارجريت» شعرت بالسعادة الشديدة والفخر الشديد أننا لدينا فى مصر هذا المتحف.. فهو متحف غنى بمحتوياته المعروضة عرضًا جيدًا، والشروح المكتوبة على كل منها واضحة جدًّا ووافية جدًّا.. وتمنيت لو أن الوقت كان أمامنا متسعا لكنا قد قضينا اليوم كله فى هذا المتحف.. وذلك كان إحساس «مارجريت» أيضًا، التى انتزعتها انتزاعا من المتحف بعد ساعتين كاملتين، لأننا كان لدينا برنامج زيارات أخرى لبقية اليوم.

وبقدر ما كنت تيها وفخورًا ونحن فى المتحف الرومانى بقدر ما بقيت (فى نص هدومى) ونحن نخرج من متحف الأحياء المائية.. زرت متحف الأحياء المائية مرة وأنا تلميذ فى ابتدائى ولم انبهر به يومها.. وزرته اليوم فانكسفت جدًّا منه.. ولو كنت وحدى لهان الأمر، لكن وجود «مارجريت» معى، وهى السائحة التى أريد أن أرى مصر السياحية من خلالها فهذه الغرفة فى البدروم التى ندعى أنها متحف الأحياء المائية هى شىء مخجل جدًّا وكأن مصر بلد فى وسط الصحراء لا يطل على عدة

آلاف من الأميال على ساحل البحر الأبيض من السلوم غربا إلى رفح شرقًا، مرورا بمرسى مطروح، والعلمين، وسيدى برانى، وسيدى عبدالرحمن، وبرج العرب والدخيلة والعجمى والإسكندرية، وأبو قير، ورشيد، وجمصة، وبلطيم ورأس البر وبورسعيد، وبور فؤاد، والبردويل، والعريش.. وعلى ساحل البحر الأحمر من بور سعيد شمالا إلى علبة وحلايب فى أقصى الجنوب، مرورا بالقنطرة والاسماعيلية والسويس، وسواحل سيناء كلها، وخليج السويس ورأس غارب والغردقة والقصير وسفاجة، وبرنيس ورأس بناس.. وقد زرت هذه المناطق كلها، ورأيت فيها العجب من الأحياء والكائنات البحرية، التى لا يوجد ١ : ١٠٠٠ منها فى متحف الأحياء المائية فى الاسكندرية، الذى يبدو وكأنه قد أنشىء بغرض -فقط- تعريف أطفال المدارس الابتدائية فى سنواتهم الأولى بعالم البحر واحدة واحدة وبالتدريج دون أن يتخضوا ويفزعوا من البحر.. لكن أن نفتحه للسياح الأجانب ونقول لهم هذا هو متحفنا للأحياء المائية، فذلك يندرج تحت بند (الغش التجارى).. لأنهم سوف يكتشفون من اللحظة الأولى أنهم قد (إنضحك عليهم) ليس فقط فى ثمن تذكرة دخول المتحف وإنما أيضًا فى الوقت الذى بددوه فى زيارته، ولو كنا قد أخذناهم إلى سوق السمك فى المنشية لانبسطوا أكثر.

لذا فبعد ٣ أو ٤ دقائق فى المتحف بدا على وجه «مارجريت» الضيق والإحباط.. وقبل أن أقترح أنا أن ننصرف كان المتحف - كترخيره - قد انتهى فعلاً.. فهو غرفتان أو ثلاث فيهما فاترينات مضاءة شبه خاوية.. وكان بعضها خاويا فعلاً..

كانت شيئًا مهيبا حقا قلعة قايتباى، أو طابية قايتباى البحرية.. يكفى أن تعلم فى البداية أنها فى مكانها هذا منذ مئات السنين.. وقد شهدت تاريخًا بحريا مثيرًا: تاريخ المماليك الذين حكموا مصر قبل الحملة الفرنسية، ثم الحملة الفرنسية على مصر ونابليون بونابرت، إلى الحملة الانجليزية بعد ذلك بنحو ٣ سنوات، ثم تاريخ محمد على باشا الكبير وأسرته من بعده حتى الخديو توفيق الذى شهد عهده ثورة أحمد عرابى.. وكانت طابية قايتباى هى إحدى القلاع البحرية المصرية التى ضربها مع الاسكندرية الأسطول الإنجليزى بمدافعه عام ١٨٨٢ قبل ١١٠ سنوات من الآن لكى تحتل إنجلترا مصر ٧٢ سنة بعدها، حتى جاء جمال عبد الناصر فأنهى هذا الإحتلال عام ١٩٥٤.

«مارجريت» لأنها فنانة تشكيلية أصلًا ودارسة تاريخ فهى ترى الأشياء بعين غير العين التى يراها بها الإنسان العادى أو السائح العادى.. لذا كان استغراقها واندماجها فيما تراه شديدًا، حتى أنها اعتذرت للدليل الذى كان يرافقنا من إدارة القلعة، وطلبت منه أن يشرح لى أنا و «ثناء» باللغة العربية، لأنها تريد أن تقرأ بنفسها المكتوب باللغة الانجليزية تحت المعروضات و (تعيش الجو بنفسها).. وظلت تنتقل داخل الطابية ونحن وراءها فى ساعات كاملة نسيتنا فيها تمامًا وكأننا غير موجودين.. وقالت لى ونحن نترك طابية قايتباى وراءنا قرب العصر: «لقد استغرقتنى المشاهدة تمامًا حتى أننى تصورت نفسى أعيش فى هذه الطابية فعلا منذ ٥٠٠ سنة».. فقلت لها بجد: «كانوا الضباط والعساكر وقتها حاينبسطوا بشكل» !!

قالت ونحن فى السيارة: هل هناك شىء آخر فى برنامج اليوم!؟ قلت: «قصر رأس التين» قالت: لقد حكيت لى عنه من قبل.. ذلك القصر الذى خرج منه فاروق آخر ملوك مصر مطرودًا إلى إيطاليا بعد أن خلعته الثورة المصرية عن العرش.. أليس كذلك؟ قلت: «صح» قالت: «أريد أن أرى القصر من الخارج فقط.. أريد أن أتخيل منظر خروج فاروق من قصره مدحورًا بعد مُلك لم يستطع أن يحافظ عليه» قلت لها وأنا أبتسم فى داخلى: «كما تشائين» ولم أقل لها إن مشاهدة قصر رأس التين من الخارج فقط كان هو بالضبط الذى فى برنامجنا.. لأننى كنت قد عرفت أن القصر لم يعد متحفًا ومزارا سياحيًّا كما كان فى وقت من الأوقات، بل تحول إلى إدارة ما حكومية احتلته لأسباب عسكرية أيام حرب ١٩٦٧ ثم نسيت أن تعيده متحفًا مرة أخرى رغم مرور ١٩ عامًا الآن على آخر حرب مرت بها مصر.

مارجريت تبدو وكأنها مركبة جهاز إنذار فى معدتها.. فهى تنسى ساعة يدها طول اليوم ولاتنظر فيها إلا مرة واحدة فقط.. وهذه المرة الواحدة معناها أن موعد الغداء قد حان..

كان المهندس «ثروت أسعد» قد نصحنى أمس بأن نجرب مطعمًا جديدًا افتتح مؤخرًا على شاطئ الإسكندرية قرب قصر رأس التين.. ولم نستغرق وقتا طويلاً فى العثور عليه.. مطعم شيك فعلاً بديكوراته الشرقية وإضاءته الهادئة من الداخل حيث الصالونات الأرابيسك وعدد قليل جدا من الموائد، وبوفيه السلطات المفتوح الذى تأخذ منه ما تشاء بنفسك، وحسب اختيارك، وتضعه فى طبقك بنفسك وتعود به إلى مائدتك،

ثم القعدة الرئيسية والعدد الأكبر من الموائد فى الـ (تيراس) الخارجى الكبير الذى يطل على البحر مباشرة.. القعدة رائعة والجو على بعضه جميل وشرقى وفاخر، والسلطات أكثر من رائعة وأكثر من مشبعة.. لكن السمك الذى جاءنا على الغداء كان صدمة لى - لى أنا على الأقل كأكيل سمك - فقد طلبت طبقًا من (السبيط) أو (الكاليمارس) أغلى طبق فى القائمة، فجاءنى شيء جاف مقرمش وكأنه بطاطس (تشيبس).. والسبيط إذا فقد طراوته وليونته فقد طعمه.. ولم يكن منظر السفرجية الجادين جدًّا الصارمين جدًّا يوحى بأنك ممكن أن تطلب تغيير طبقك لأنه لم يعجبك، بل يجعلك تتصور أن هذا الطبق بحالته هذه قد مر على ١٠ زبائن قبلك أكل كل واحد منهم - أو قرقش - قطعة واحدة من هذا (السبيط التشيبسى) ثم ترك الطبق لكى يصل إليك فى الآخر.

وحمدت ربنا أنها جاءت فىّ أنا ولم تحدث مع «مارجريت» أو «ثناء»، لأن «مارجريت» - كأوروبية - لم تكن تتردد فى أن تطلب مدير المطعم نفسه لكى تطلب منه تغيير الطبق، أما «ثناء» فهى فضوحية ولست أظنها كانت ستطلب أقل من محافظ الاسكندرية أو وزير الحكم المحلى.

مارجريت وثناء (جايين على هوا بعض).. فبينما أحب أنا أن أنام قليلاً فترة العصر طالما أنا موجود فى مصر - وهى العادة التى أحرم منها تمامًا طوال وجودى فى إنجلترا - فهما لا تعترفان بمسألة نوم العصر هذه.. وإذا لم تستطيعا إغرائى بمكان ما نذهب إليه عصرًا فهما تتركانى نائمًا وتنطلقان هما على راحتهما.. وذلك ما حدث اليوم بعد عودتنا من جولتنا الصباحية.

وحين أيقظتانى فى المساء كانتا متزوقتين ومتشيكتين وعلى سنجة

عشرة: «خير يا حسناوات.. عايزين إيه» !؟.. «ماذا لدينا فى البرنامج للمساء» !؟.. قلت وأنا أعطيهما ظهرى وأعود إلى النوم من جديد: «مفيش برنامج فى المساء.. جولة حرة.. روحوا اتمشوا على كيفكم» قالتا وقد جلست واحدة منهما عند رأسى والأخرى عند قدمى، كناكر ونكير: «وهل يرضيك أن نتجول وحدنا ونحن ستات؟ مش خايف لاحد يخطفنا» !؟ قلت وأنا أقوم متضررا: «هو معقول برضه حد يرضى يخطفكم» ؟!!

الجولة فى حدائق قصر المنتزه التى تحيط بالفندق، أو التى بنى الفندق على حافتها فى جزء بدا لنا صغيرًا جدا جدا بالنسبة إلى الاتساع الهائل للحدائق، الجولة رائعة فعلا حتى أن «مارجريت» نسيت القصر نفسه ولم تهتم إلابالحدائق فقط.. وقالت لنا إنه لاشك أن هناك جهة ماتفهم بشدة - وبمزاج - فى شئون الحدائق، لكى تحتفظ بكل هذا الجمال على صورته هذه التى رأيناها عليه.. الحدائق وحدها تكفى.. ولست أدرى إن كان كل هذا الجمال مفتوحًا للشعب أم لا ، لكنه ينبغى أن يكون.. فقد لاحظنا أن هناك بوابة على مدخل الحدائق لا تجتازها إلا بتصريح يثبت أنك مقيم فى الفندق الوحيد، أو فى الشاليهات المجاورة له على جانبيه، والتى أيضا لا أدرى هل هى تتبع الفندق أم تتبع محافظة الاسكندرية، وهل هى للناس العاديين، لكل الناس، أم لفئة ما من الناس المهمين فى الدولة، الذين أصبحوا الآن كثيرين ولاشك. وقد تبدو تساؤلاتى هذه كلها ساذجة وأن الجميع يعرفون إجابتها ماعداى، فإن بعدى عن مصر فترة طالت إلى ١٥ سنة جعلتنى بعيدًا عن كثير من الأشياء التى كنت قطعًا

سأهتم بها وبمعرفتها إن لم يكن كمواطن فعلى الأقل كصحفى..

لكننا على أى حال نستمتع الآن - جدًّا - بالتجول فى حدائق قصر المنتزه الشاسعة.. وننتقل من جزء جميل إلى جزء أجمل ومن موقع رائع إلى موقع أروع، والظلام والأضواء الخافتة المتناثرة فى أماكن، القوية فى أماكن أخرى تضفى على الجو كله سحرًا فوق سحر.. حتى مررنا بسلسلة من المحلات وقفت «مارجريت» مخضوضة أمام واحد منها دون أن تتكلم للحظات، ثم سألت وهى مشدوهة: «الراجل ده بيلعب بإيه؟ إيه اللى هو بيطيره فى الهوا ده وبعدين يخبطه فى الترابيزة قدامه، ويرجع يطيره تانى»!؟ فقالت: «ثناء» وهى تمسك بطنها من الضحك على حكاية (بيلعب بإيه): «ده مش بيلعب.. ده بيعمل فطير».. «بيعمل إيه»!؟ «فطير».. «إيه فتير دى»!؟ «حاجة كده زى البيتزا بس ألذ كتير».. «هاها.. بيتزا مصرية.. أذوق».

أتصور أن الفطيرة لا يزيد سعرها عن جنيه واحد مثلاً، لكن المصيف وحدائق قصر المنتزه وشعر «مارجريت» الأحمر وشكلنا «السياحى» جعل سعر الفطيرة يصل إلى أربعة جنيهات ونصف!! لكن متعة مشاهدة عمل الفطيرة نفسها كانت تساوى أضعاف ذلك المبلغ.. فقد رأت «مارجريت» قطعة العجين المكببة فى حجم كرة التنس وهى تتحول فى يد الفطاطرى الشاب البارع إلى منديل رقيق جدًّا من العجين فى مساحة الطاولة الرخامية كلها أمامه، ثم وهو يرص فى هذا المنديل ويحشوه بعشرات من أصناف الجبن والزيتون، والبسطرمة وقطع اللانشون، وبيض مسلوق، وجبن رومى مبشورة، وفلفل أخضر وفلفل أحمر، وعدد آخر من

أصناف التوابل ضاعت أسماؤها من ذاكرتى، بل لم أكن أعرف أسماءها من الأصل، ثم وهو يطوى منديل العجين فوق كل هذا الحشو ليصبح شكله فى الآخر فطيرة من العجين الأبيض لا ترى ما بداخلها، ثم يطقش بيضة نيئة لكى يدهن سطح الفطيرة بصفارها وبياضها معا وهوب: إلى داخل الفرن المحمى الذى تتوهج النيران بداخله و: «١٠ دقايق بس ويكون الفطير جاهزًا».

وجلسنا على دكة من الرخام الأبيض فى حديقة قصر المنتزه نلتهم الفطير السخن الملهلب، و «مارجريت» بين قطمة وأخرى من الفطيرة تفتح فمها على اتساعه وتهوى داخله بيدها لكى تبرد سخونة الفطيرة من ناحية وشعوطة التوابل الحراقة فى حلقها من ناحية أخرى، وهى تقول بين حين وآخر: «ذلك هو أشهى عشاء تناولته فى حياتى حتى الآن».. (ملحوظة: قالت «مارجريت» ذلك عن كل عشاء تناولته فى مصر.. حتى الآن!! انتهت الملحوظة)!!..

حين نظرت مارجريت فى ساعة يدها قلت لها مندهشًا: «ما انت لسه متعشية حالاً آهه.. لحقتى جعتى تانى»!؟ قالت: «ساعة اليد يامستر قدرى لها أحيانا فوائد أخرى غير تذكيرك بمواعيد الأكل.. إنها فى بعض البلاد الشرقية، مثل مصر، ممكن أن تذكرك بمواعيد الرقص الشرقى»!!.. كنت قد نسيت تمامًا.. قلت: «آه والله.. عندك حق.. ياللا بينا».

توقعت أن أجد زحامًا هائلاً على باب المسرح الذى تقدم فيه فرقة رضا عرضها الصيفى فى الإسكندرية، لكننى لم أجد أحدًا على باب المسرح، ولا حتى باعة اللب والسودانى.. ظننت أن العرض قد تأجل أو

أن الإعلان قديم ومتروك هكذا فى مكـانه منـذ الصيف الماضى.. لكن المسرح من الخارج مضاء وشباك التذاكر مفتوح وبداخله سيدة سمينة لا أدرى كيف استطاعت الدخول من هذه الفتحة الضيقة للشباك،على رأى النكتة القديمة.

فى داخل المسرح كانت الصدمة الأولى.. ففرقة رضا بصيتها وشهرتها لم تستطع أن تجتذب إلا هذا العدد الضئيل جدًّا من الجمهور الذى لم يكف لملء الـ٤ أو٥ صفوف الأولى، بينما بقية المسرح على اتساعه - وهو كبير جدا - فاضٍ تمامًا بشكل يثير الأسى.. آخر مرة شهدت فيها فرقة رضا كانت منذ نحو ١٠ سنوات، حين قدمت حفلة واحدة فى لندن بدعوة من المركز الثقافى المصرى هناك.. وكان عرضًا ناجحًا ورائعًا بكل المقاييس التهبت له أكف المشاهدين الإنجليز قبل المصريـين.. وكانت «فـريدة فهمى» وقتها لازالت نجمة الفرقة بينما كان «محمود رضا» قد اعتزل الرقص بعد أن أصبح وكيلاً لوزارة الثقافة.. ما يصحش إن السيد وكيل الوزارة يرقص..

ولمن تكن «مارجريت» قد شهدت رقصًا شعبيًّا مصريًّا من قبل، لكننى و«ثناء» حدثناها عنه وعن فرقة رضا بحماس شديد وكيف أنها ممثلة مصر الرسمية فى الرقص الشعبى وأن لها شهرة عالمية بعد أن قدمت عروضها فى العالم كله من روسيا إلى أستراليا ومن اليابان إلى أمريكا، وأن بطل الفرقة ومؤسسها وكيل وزارة قـد الدنيـا الآن، وبطلة الفـرقة تـدرس للدكتوراه فى أمريكا وتحاضر فى جامعاتها فى نفس الوقت.. ووو...

وبدأ العرض....

وظللنا طول العرض صامتين أنا و«ثناء» ومش عارفين نودى وشنا فين بعد قصائد المديح الهائلة التى أنشدناها لمارجريت عن الفرقة.. فقد كان العرض فقيرًا جدًّا وباهتًا جدًّا، وليس فيه رونق ولا بهاء ولا رشاقة ولا خفة ظل فرقة رضا التى نعرفها.. وبدت كما لو كانت فرقة كفر شلشلمون الاستعراضية ترقص فى مولد من موالد محافظة الشرقية..

وفى فترة الاستراحة أخذت «مارجريت» و«ثناء» ودخلنا إلى الكواليس لكى أحيى أصدقائى القدامى الباقين من أعضاء الفرقة: «الجداوى رمضان» مدير الفرقة الآن، وزوجته السورية «لطيفة لحام» و«فاروق مصطفى» مدربا الفرقة الآن بعد «محمود رضا».. وحين اطمأنت «مارجريت» إلى أن «الجداوى» يجيد اللغة الإنجليزية قالت له رأيها بصراحة فيما شاهدته حتى الآن ولاتظن أنه سوف يتغير فى الفصل الثانى: البنات الراقصات لسن رشيقات كما يجب أن تكون الراقصات، ولاجميلات ولا حتى وسيمات، وشكلهن بلدى جدًّا باستثناء واحدة أو اثنتين نص نص.. وهن يرقصن كما لو كن موظفات حكومة تناولن عشاء ثقيلًا قبل صعودهن إلى المسرح مباشرة، لذا فحركتهن ثقيلة، وابتسامتهن ثقيلة، وكأنهن يتعجلن موعد انتهاء العرض كى تعود كل منهن إلى أطفالها الستة فى البيت، ووو....

أتصور أن «الجداوى» قد أمر - خلسة - بدق جرس انتهاء الاستراحة بدرى عن موعده لكى يخلص من «مارجريت» ومنى...

فى الصباح طلبت «مارجريت» أن نقوم بجولة أخرى فى حدائق قصر المنتزه تراها فيها بالنهار بعد أن أعجبت بها جدا أمس مساءً.. فقمنا

بجولة طويلة لكى ترى بالنهار ما حجبه عنها الظلام والإضاءة الخافتة أمس ليلاً.. رأت القصر الذى كان يقيم فيه الملك فاروق وأسرته.. ورأت الفيلات الصغيرة الجميلة جداً التى كانت تقيم فيها وصيفات الملكة وحاشية الملك وسكرتيروه ومعاونوه.. ورأت قصر الضيافة الذى كان ينزل فيه ضيوف الملك المهمين.. وتجولنا فى الحدائق نحو ساعتين.. لكن كادت الجولة أن تنتهى بكارثة..

فى ١٧ فبراير عام ١٩٧٨ كانت الفنانة التشكيلية «مارجريت توملين» فى طريق عودتها من اليونان إلى أمريكا، وقررت أن تقضى يوماً واحداً فى جزيرة قبرص لكى تشاهدها فى جولة سريعة.. لكن هذا اليوم الواحد كان كافياً لكى تشهد فى الصباح التالى وعلى بعد خطوات منها إطلاق الرصاص على المرحوم «يوسف السباعى» ومصرعه فى بهو الفندق الذى نزلت فيه.. وكان مشهداً مفزعاً وتجربة لاتمر مرتين فى حياة الإنسان العادى.. وحين سألت «مارجريت» عن من هو وما أهميته لكى يلقى مصرعه على هذه الصورة، قيل لها إنه صحفى مصرى كبير.. وظلت هذه الصورة عالقة بذهنها فترة طويلة حتى التقينا وتعارفنا، وعرفت أننى صحفى مصرى، فحكت لى ماشاهدته وسألتنى: «هل تنتهى حياة كل الصحفيين المصريين هكذا؟!» فقلت لها: «ليس كلهم، العظماء منهم فقط» فسألتنى: «وهل أنت صحفى عظيم!؟».. واعتماداً على أنها لاتعرف اللغة العربية ولم تقرأ لى شيئاً فقد قلت لها على الفور: «طبعاً»... فظلت طوال سنوات معرفتنا تتوجس شراً من أى حد يقترب منى بشكل مفاجىء، وتتصور أنه يهاجمنى أو سوف يهاجمنى..

المهم: حين عدنا ظهرًا من جولتنا فى حدائق قصر المنتزة ودخلنا بهو الفندق، سمعت اسمى ينادى عليه فى الميكروفون الداخلى للفندق بأن أتوجه إلى مكتب الاستقبال للأهمية.. فذهبت لكى يبلغنى موظف الاستقبال الشاب بأن صديقى وأستاذى الأديب «أنور عبدالله» ينتظرنى فى صالون الفندق.. واستدرت لأتوجه إلى صالون الفندق ففوجئت بفتاة شابة ترتدى بنطلونًا أسود وبلوزة سوداء تهجم علىّ فجأة وتحتضننى بعنف وهى تهتف: «يا حبيبى يا بابا»!!.. ذهلت للمفاجأة، وتصورت أن الفتاة قد أخطأت وظنتنى أو خيل إليها أنى أبوها، فأبعدتها عن حضنى قليلاً وأنا شكلى مخضوض فعلاً ونظرت إلى وجهها متفحصًا فلم أتعرف عليها لأنه كان واضحًا أنها لسه خارجة من البحر حالاً، لأن وجهها مبلول وشعرها مبلول ونازل على عينيها يغطى جزءًا كبيرًا من وجهها.. لكن صوتها كان يرن فى أذنى مألوفًا ومعروفًا.. وهى سعيدة تماما بحيرتى.. وحين أزاحت شعرها عن عينيها عرفتها فورًا فدخلنا فى حضن بعض من جديد فأنقذها ذلك من سن شمسية «مارجريت» التى كانت مندفعة كالصاروخ تحاول أن تطعن بها الفتاة التى ظنتها تحاول أن تعتدى علىّ!!

«نهلة»، أحب بنات الأسرة كلهن إلى قلبى وأقربهن إلى نفسى، ربيبتى، فقد تربت ونشأت فى بيتى منذ كان عمرها سنة واحدة، حتى دخلت الجامعة وسافرت أنا إلى أمريكا، وطول عمرها وهى تنادينى «بابا».. وكانت تقضى أجازة صيف بالإسكندرية، فلم تعرف بوجودى فى مصر إلا عندما سمعت اسمى ينادى عليه فى ميكروفون الفندق الذى يسمع فى كل مكان فى الفندق حتى على الشاطىء، فخرجت من البحر تجرى لكى

تلحق بى وتفاجئنى عند مكتب الاستقبال، لكنها كادت تموت شهيدة سن شمسية «مارجريت» التى لم يغب عن ذهنها حتى الآن مشاهدتها لمصرع يوسف السباعى!!

أستاذى وصديقى الأديب «أنور عبد الله» واخدنا اليوم (مقاولة) كما قال لى.. فهو (بالأصالة عن نفسه) يدعونا للغداء على أكلة سمك فى مطعم على البحر مباشرة ملاصق لفندق فلسطين، وبالنيابة عن زوجته صديقتى الفنانة «سعاد حسين» لأنها مرتبطة بشغل فى التليفزيون لم تستطع أن تتركه لتجىء لتحتفى بنا فى الإسكندرية، بلدها، فقد (كلفته) بأن يدعونا للعشاء باسمها فى نادى الصيد فى موقعه الجديد فى مواجهة قلعة قايتباى التى كنا فيها أول أمس.

قعدة الغداء على البحر مباشرة تملأ الصدر بهواء البحر المنعش ورائحة يود البحر تفتح النفس أكثر.. السمكة المشوية التى وضعها السفرجى أمام «مارجريت» قطعًا كانت صحتها كويسة جدًّا حين كانت لسه فى البحر.. سمكة هائلة الحجم تكفى أسرة مفجوعة مكونة من خمسة أفراد.. لكنها بعد خمس دقائق فقط كانت قد أصبحت أثرًا بعد عين، ولم يبق منها إلا شريط سلسلتها الفقرية بالشوك على الجانبين، وكأنها مغسولة ونظيفة وناصعة البياض!!.. ولو لم أكن أعرف أكلة «مارجريت» الصغيرة فى لندن لظننتها طول عمرها مفجوعة هكذا، لكن الجو فى مصر فتح نفسها على الآخر، وجو الإسكندرية فتح نفسها على مصراعيها، وربنا يستر فلم يبق معى - على رأى النكتة - غير عدة ملايين قليلة من الجنيهات!!

* * *

وحين أوصلنا مارجريت إلى مطار القاهرة مرة أخرى بعد انتهاء زيارتها لمصر، كانت قد قضت فيها ٢٥ يومًا أتصور أنها لن تنساها أبدًا.. فمنذ بداية معرفتنا منذ ٩ سنوات وهى تحلم بهذه الرحلة..

وبمجرد وصولها إلى بيتها فى ضاحية (ويمبلدون) فى لندن اتصلت بى فى القاهرة تليفونيا.. وظننتها تتصل لكى تشكرنى على حفاوتنا بها خلال زيارتها، لكننى فوجئت بها تسألنى فى لهفة سؤالاً غريبًا:

– حسين.. نسيت أن أسألك عن شىء ما وأنا فى مصر: هل الماء المثلج الذى عندك فى الثلاجة فى بيتك فى القاهرة من ماء النيل!؟...

قلت لها مندهشا:

– طبعًا من ماء النيل، فنحن لم نبدأ فى استيراد الماء من الخارج بعد.. لكن لماذا تسألين هذا السؤال!؟

قالت:

– هل تظن أننى شربت منه كفاية ليجعلنى أعود إلى مصر مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، و.....

حسين قدرى

لندن – نوفمبر ١٩٩٠

فهرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابي	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٢٦٠٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3629 – 2	ISBN

١ / ٩١ / ٢٦٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)